

مصطفى محمود

مغامرة في الفكر



الكتب المصرية الحديثة

الجنة درجة حراقتها

٤٨

من نافذة الطائرة كانت تبدو الرمال المترامية بلا حدود تلمع في وهج
الشمس كقميص من الذهب تعلو فيه التلال كنهود مكورة خمرية في رسم
سريالي خرافي من تلك الرسوم التي يرسمها سلفادور دالي.

وكنت غارقا في أحلامي أتتبع هذه اللوحة الأسطورية حينما تيقظت على يد
رفيق في الرحلة الأخ على المصراق «الكاتب الليبي المعروف».

وسمعه يقول بصوت قلق:

- هل أحضرت في حقبيتك كل اللوازم؟

قلت في اطمئنان :

- إن بها كل ما أحتاج إليه من هدم .

ورأيت يتفجر ضاحكاً :

- هدم ؟ !! - هذه الحقيبة المنفوخة كلها هدم .. (وراح يقهقه) ..

- هل تعرف أن درجة الحرارة في غدامس خمسون درجة في الظل .. هل

سمعت النشرة الجوية ؟

قلت وقد بدأت أنصعب عرقاً :

- يا لطيف !

ونذكرت درجة حرارة الأربعين في القاهرة وأنا أسير مغمى على وقلت وأنا

أرتجف :

- على أي حال لا بد أني سأجد دنساً في الأوتيل .

- هناك أدناس بعدد ما تريد ولكن المياه ملحة وتسقق الجلد :

- أعوذ بالله وهل شرب من هذه المياه الملحة .

- يمكنك أن تشرب مياه غازية ولو أنها مصنوعة من نفس المياه الملحة ..

على أي حال هي مياه ملحة مفيدة للصحة فيها حديد ونيحاس وزئبق .

- وزئبق كيان .. هذا يعني أننا سوف نموت بالتسمم

- سوف نتعود .

- انظahr أننا سوف نتعود على أشياء كثيرة .

- ولكنك طبعاً أحضرت معك المصل .

- أي مصل ؟

وهنا قفز صديق من كرسيه في اتزعاج !

- المصل المضاد للعقرب والتعبان .. هل نسيت ؟

والواقع أني كنت قد نسيت تماماً ..

وقلت وأنا أحاول أن اطمئن نفسي :

- وهل هناك عقارب ونعابين ؟

- وعناكب وحيات .. نحن نازلون في قلب الصحراء الأفريقية .

- ولكننا سوف نتمكن في أوتيل ونام في غرفة يمكن أن نقفل بابها وشبابكها

عليها .

- ستنام في غرفة صحيح ولكنك لن تستطيع أن تقفل بابها من الحر إلا إذا

كنت تريد أن تموت مسلوفاً .

وراح يضرب كفا بكف :

- كيف تنسى احتياطاً طيباً كهذا .. وأنا معتمد عليك باعتبارك طبيباً ؟

وارتفع أزيز الطائرة ذات المحرك الواحد وراحت ترتفع وتنخفض في

المطبات الساخنة كأنها ريشة في مهب الرياح وغرق المصراقي في سكوت قلق .

قلت وأنا أحاول أن أنسى كلمة مطمئنة :

- ولكن هناك مشق على أي حال أو مركز إسعاف في حالة ما إذا ..

- هناك مركز إسعاف ولكن الحقن الموجودة .. تنفذ بسرعة لأن حوادث العقارب كثيرة جداً .. ونمر أيام قبل أن تصل نسخة جديدة من طسرابلس بالطائرة .. وأنت تعلم أن لدغة العقرب تقتل في ظرف ساعات ..
- أعوذ بالله ..

قال في نبرة استسلام :

- نهايته .. الأعمار كتاب .. والحذر لا ينجى من قدر .. وإذا كان مكتوباً لنا الموت في غدامس سنموت في غدامس حتى ولو كان مركز الإسعاف كله في جيبنا ..
وسمرت بأطرافى تتلج هذه النبرة الجنائزية .. لم يبق إلا أن نحضر معنا الأكفان .. ونقرأ الشهادتين .. ويكتب كل منا وصيته ..

وراحت الطائرة تهتز مرة أخرى وتسقط كأنها تهوى إلى قاع بئر ثم ترتفع وتنزع أحسناني في كل مرة .. ومال الأخ المصراني على النافذة مشيراً بأصبعه :

- أترى هذه النقطة الخضراء ؟ هذه غدامس .. لؤلؤة الصحراء كما يسمونها .. في هذه النقطة تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة ..

وأخذت الطائرة تدور مستعدة للهبوط ..

وظهرت شواطئ النخيل خضراء تلمع في الشمس الفاربية ..

وسكت المحرك الواحد وبدأت الطائرة تهبط حتى استوت على الأرض في نعومة ..

وهبطنا لتستقبلنا على الباب لفحة ساخنة ..

وكان الترمومتر في المطار يشير إلى درجة ٤٥ .. ولكن الحرارة كانت محتملة بسبب الجفاف الشديد ..

وكان كل شيء جافاً نظيفاً ساخناً .. الأرض والجدران والمقاعد والأبواب .. ولكن الهواء كان صافياً نقياً معقماً كأنه خارج من أوكلاف وكان يدخل الصدر فيفسله ..

وسمرت بالانتعاش بالرغم من شدة الحر ..

ولكني كنت مازلت أفكر في العقارب ..

وحينما التقينا بمصرف المنطقة الشيخ ونيس الدهماني .. (المتصرف في مقام المحافظ عندنا) .. كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب .. وكنت أفكر في الطريقة التي أسأله بها ..

وأمسك يدي يشد عليها في حرارة ..

- كيف الحال ؟ اتنا الله تكون مرناح .. كيف الحال عندكم في مصر ؟

ونظرت إلى الرجل المديد القامة .. كان وجهه الصريح وملاحظه الحادة القوية والسمة النيلة التي تكسو وجهه تحكي قصة كفاح طويلة مع الصحراء ومراس متصل مع المشقات ..

وكانت عيناه تتدفقان طيبة وبساطة ..

وقلت له إن الأحوال بخير في مصر ودعوته لزيارتنا ولقضاء الشتاء على ضفاف النيل ..

ولكني كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب ..

ورأيتني أسأله فجأة عن العقارب .

وضحك الرجل ضحكة مجلجلة :

- العجارب .. العجارب ما بتعمل شئ .. الأولاد هنا بيجمعوا العجارب في
طاسة ويلعبوا بها .. بينبشوا عليها في الصحرا .. فيه حد يخاف م العجارب ..
انت خايف يا دكتور ؟

وقلت له وأنا أكذب بشدة :

- لا .. لا .. أبدا ..

وعدت أسأل على استحياء بعد لحظة صمت :

- لكن يعني .. فيه أظن مركز إسعاف في البلد .. وفيه مصلى عفرب ..
.. ما في حد بياخد المصل .. وحياناخذ المصل ليه .. العجارب ما بتعمل
شئ ..

واعتبرت المسألة متنبية .. وأن العقارب ما بتعمل شئ ..

وقلت للأخ على متعديا :

- شايف يا على .. العجارب ما بتعمل شئ ..

وضحك على ساخرا :

- طيب ما بتعمل شئ .. ما بتعمل شئ .. مبروك عليك عجارب غدامس ..

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى عديد من الموضوعات ثم خطر لي أن أسأل
المتصرف في ناحية من نواحي اختصاصه فسألته عن إحصائية بالحوادث في
غدامس في السنوات الأخيرة :

قال الرجل في استفهام :

- إحصائية بالحوادث .. كيف ؟

- يعني عدد الجرائم مثلا .. عدد الجنايات ..

- جرائم .. كيف ؟

- جرائم السرقة .. وجرائم القتل ..

وابتسم الرجل في طيبة :

- احنا ما عندنا جرائم ..

وفتح دفترأ كبيراً راح بقلب صفحانه أمامي .. صفحات عديدة بيضاء ..
استفسارات من الوزارة .. وردود عليها .. مترواح مساكن شعبية .. مذكرة
بإنشاء ناد للشباب .. محضر صلح بين عائلتين .. مذكرة من الأهالي بطلب بناء
خزان ماء للمسجد .. ولكن لا جريمة واحدة .. لا جريمة سرقة .. ولا جريمة
قتل .. الأمن مستتب بطول السنوات العشر الماضية ..

وأبدت دهشة وقلت إن هذا شئ غير معقول .. ثم عدت أقول إن
البوليس لايد أنه كف جداً ..

وقال المتصرف :

- هذا بفضل السيد البدرى ..

- قلت له إن السيد البدرى هذا رجل عظيم الشأن جداً وأبدت رغبتي في
زيارته وفي الطريق إلى السيد البدرى كنت أقول لتفسي طول الوقت .. أخيراً
وجدت الرجل الذي صنع المستحيل .. إنه ولانك أعظم مأمور بوليس في
الدنا وفجأة توقف المتصرف وأشار بأصبعه إلى نافذة :

وفي حكاية أخرى أنها تفجرت تحت أقدام فرسة عقبة بن نافع .. كانت
الفرسة تنبش بحافرها وهي عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت
« عين الفرس » وهي حكاية مشكوك فيها لأن العين بدأت في الغالب مع مولد
الواحة ذاتها ولم تحبى متأخرة مع دخول الإسلام .

وهناك حكاية ثالثة تروى أن قافلة من البدو الرحل تذكروا بعد أن أوغلوا
في الصحراء أنهم نسوا قصعة طعامهم في المكان الذي تغدوا فيه أمس وعادوا
أدراجهم يبحثون عنها في المكان الذي أكلوا فيه ، وبينما هم يبحثون تفجرت
العين فسموها عين غدامس أي حيث الغداء بالأمس .. غدا أمس ..
فأصبحت غدامس وهي فبركة طريفة لاختلاق أصل عربى لاسم غير عربى .

لكن الحقيقة غير معروفة .

مضى .. وكيف .. وفي أى عصر .. انفجر هذا ينبوع فأحال الصحراء إلى
جنة .. لا أحد يعلم .

لكن كالعادة الخير أتى ومعه الشر .

فما لبثت الواحة الخصبة أن أصبحت مطعماً للأقوياء وتعاقب عليها الغزاة ..
الرومان والوندال والبيزنطيون .. ومازالت بها إلى الآن آثار رومانية ..
وطرز العبارة البيزنطية واضحة في طابع مبانيها .

ولقد ظلت غدامس مسيحية بسبب الوندال والبيزنطيين إلى سنة ٦٦٦
ميلادية (الموافقة ٤٢ هجرية) حينما دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع
ليحولوها إلى الإسلام .. وبعد الحرب جاء الأتراك في القرن السادس عشر ثم
إيطاليا في سنة ١٩٢٤ .. وانتهت قصة استعمار الواحة في يناير ١٩٤٣ حينما
أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وثكناتها في الواحة في
الحرب العالمية الثانية ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامى .

ولكن أغلب الظن أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ في الواحة .. فهناك
آثار عصر حجرى وسكاكين وخناجر من الصوان .. وقد عثر على تمثال عجول
ذى رأس بشرى بالقرب من بئر عوان بمجنوب غدامس ذى ملامح من النحت
البدائى الذى كان موجوداً في مصر قبل التاريخ .

إنها قصة قد تطول إذن إلى عشرة آلاف سنة وربما أكثر لا أحد يدرى .

وكل هذا التناطح دار حول بئر انفجرت وسط الصحراء .

وكان هناك نظام قديم للسقاية من البئر يدل على مدى قيمة الماء في ذلك
الوقت فقد شق الأهالى عدة أنهار تجرى فيها مياه العين وعلى كل نهر بوابة
يمكن أن تفتح وتغلق واستعملوا ما يشبه الساعة المائية .. سطل مثقوب تسيل
منه المياه ببطء حتى يفرغ على مدى ساعة زمن .. وعند بدء الساعة يفتح أحد
الأنهار لتستق منه إحدى القبائل وفي نهاية الساعة تغلق البوابة فتنتهس
السقاية .. ويحضى الدور على القبيلة الثانية التى تستق من النهر الثانى وهكذا
يمر الدور على جميع القبائل .. أول نظام لعداد مائى في العالم .

ومازالت هناك ثلاثة أنهار جارية تخرج من البحيرة الكبيرة التى تصب فيها
العين .. ومازالت تحمل الأسماء البربرية القديمة .. تاسكو .. وتارت ..
وتجسين .

وقد بنى الأهالى مدينتهم فوق هذه الأنهار فأصبحت أول مدينة تجرى من
تحتها الأنهار كأنها الجنة ..

أهلها لا يعرفون السرقة ولا القتل ..

والبوليس يجلس فيها بلا وظيفة أمام دفاتر خالية ..

وتحكمها روح سيدى البدرى ..

وتجربى من تحتها الأنهار ..

ولكنها جنة عجيبة درجة حرارتها ٤٨ .

| الكلمة بالليبي العاصي | الكلمة بالعربي |
|-----------------------|--------------------|
| يبلرز | يثرثر |
| يعفلج | يثرثر |
| باهي | كويس |
| الله غالب | يفتح الله |
| مربوحة | رابحة انشاقه |
| لا سو | لا بأس |
| يشيح | يشوف |
| يرجب | يبتدح |
| عنده ناموس | عنده همه |
| هجاله | أرملة أو مطلق |
| لوطه | الأرض |
| طار السو | خذ الشر وراح |
| مصامة الكرشة | (عند انكسار شيء) |
| يدهور | أخر العنقود |
| يكحل | يتفسح |
| الانقر | يصبص |
| الدلاع | قرة العين |
| يدوى | البطيخ |
| الكورفي | يتكلم |
| يجنتر | السفرة |
| | يفشر |

الظلام
حالك
من
عسر
النهار

احترقت طائرة المارشال باليو وهي الآن رماد تذرؤه الرياح من سنين .
ماتت القبلات .

والعشيقات الفاتنات أصبحن الآن عجائز بلا أسنان .

وما هو السرير الشهير في فندق غدامس يشهد ليلة جديدة مختلفة .

فعندما يأتي الظلام سوف أوى إلى السرير وأنا احتضن كتاباً

إنه علق من نوع جديد .

ولعله العنق الوحيد الذي تدوم فيه القبلات وينثر العناق .

وتسمرت بأني بحسب أن أعتذر للبانو فلن يكون له دور كبير في غراميات
الليلة .

وكان بانو فائرا ميطنا بالقيسافي الأسود والفس في ينزل سائحنا ملتهبا
بلا سخان . وكل حنقية هنا تنزل منها المياه ساخنة ، فرمال الواحة الملتببة

تعمل كموقد طبيعي طول الليل يرفع حرارة جميع الأشياء .

ورجحت أنقب تحت السرير وراء الأبواب وفي الأركان عن العقارب
والثعابين والسحالي والعناكب والأفاعي .

وسمعت قرعاً على النافذة وأطلت رأس الأخ المصراق :

- أنت مستعد ؟

- ليه ؟

- حانطلع جبل قصر الغول .

كان خادم فندق غدامس يدور في غرفتي في سعادة وينثر بأصبعه مبهتسا إلى
السرير الذي أنام عليه .

- هذا السرير نام عليه المارشال باليو منذ أكثر من ثلاثين سنة . . ومنذ
سنوات قليلة كانت تحتل هذه الغرفة صوفيا لورين ونامت على نفس السرير
أربعين ليلة . . كانت تصور هنا فيلم « الحبة السوداء » وفي هذا البانيو كانت
تستحم كل مساء .

إنها غرفة محظوظة . . في أيام الاستعمار الإيطالي كان المارشال باليو يجلب
العشيقات الفاتنات من روما بالطائرة وكان يملأ هذه الغرفة بالضحكات . .
وكانت قرعات الكنوس ترن في سكون الواحة . . هذا سرير له ذكريات . .

ورجحت أنمرغ في سرير المارشال باليو وصوفيا لورين .

انتهت الضحكات .

وأعجبني الاسم .

كانت له رنة في الأذن توقظ الرغبة في المغامرة .

وقلت له إني آت فوراً .

جبل قصر الغول !

وفي دقائق كنا نركب عربة لاندروفر تترنح بنا خارجة من الواحة إلى عرض الصحراء .

وكان هذا أول لقاء لي مع الصحراء . . ذلك البساط من الرمل بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر وبلا قطرة ماء . . وذلك الهواء الجاف الساخن كأنه منديل كبير من الشاش يمسح العرق ويجفف اللعاب . . وتلك الأرض الهشة التي انفرطت إلى ركام من الدقيق الأصفر وتلال وأكام وجبال ووديان تصفر فيها الرياح فتصيح السماء بلون الأرض ولا ترى يدك على بعد متر من عينيك وكأنك غرقت في مستحلب أصفر ونحولت إلى ذرة تراب في عالم من التراب يدخل من فمك وأنفك وأذنيك وعينيك وجلدك ويلذعك بملايين النبال الساخنة .

وكانت اللاندروفر تتلوى صاعدة هابطة ساقطة .

وأعالي تنخفض . . ورأسي يخبط في السقف . . وبعضى يخبط في بعض . . والسائق ماهر جداً . . ومتخصص في الطريق ومعه دليل . . ونحن جميعاً نشكر الله . . فلولا ذلك لتأنت السيارة لأي خطأ طفيف في الاتجاه ودخلت في واحدة من تلك المناهات التي يسمونها الرمال الناعمة حيث تفرس كما يفرس الحجر في الماء .

ومرت ساعات دون أن تقطع مسافة تذكر .

وظهرت الحدود الجزائرية على البعد .

ودرنا حول الحدود ثم بدأت السيارة تسرع على سهل منبسط لثقي بنا في النهاية عند أقدام جبل صغير أشبه ملياً بالتنوءات الصخرية . . قال السائق وهو يتوقف أمامه :

- هذا هو جبل قصر الغول . . هنا حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار .

ونزلنا تتسابق جرياً إلى القمة وأشهد أن الأخ على المصراقي كان أسرعنا وصولاً . وكان أول من صاح وهو يطل علينا من فوق :

- لقد وجدت البئر .

أما أنا فقد توقفت عند منتصف الجبل أمام كهف مظلم . .

وجلس على صخرة كبيرة ألنقط أنفاسي . وقال لي الضابط المرافق إن هذا الكهف نقيه جنود عقبة بن نافع في الجبل . وظلوا ينقبون في الجبل حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر ورابطوا هناك يقطعون كل حبل يدلي به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً فلم يجدوا بدا من النزول والالتحام مع جيش عقبة وانتهت المذبحة بانتصار العرب . . وأنت تستطيع أن ترى من هنا قبور الشهداء من الصحابة . . وأنار إلى عدد من القبور منصوبة بطريقة إسلامية بسيطة .

وحيناً بدأنا تسير نحو القبور . . كنت أفكر في الطريق الطويل الذي قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة من التمر .

أي قوة رهيبة .

| الكلمة بالعربي | الكلمة بالغدامي |
|----------------|-----------------|
| محمة | امرى |
| دراهم | دراهم |
| الطفل | امطفال |
| الخصومة | اكناس |
| يبكى | يطزف |
| الفراسة | فرططوا |
| الغضب | ايبرج |
| النار | اوقا |
| الماء | امان |
| الناس | ساي |
| القهوة | قهوة |
| المرأة | لثنا |
| الرجل | واجيد |
| ١ | يون |
| ٢ | سين |
| ٣ | كاراخى |
| ٤ | اكظ |
| ٥ | سسى |
| ٦ | سظ |
| ٧ | سا |
| ٨ | تام |
| ٩ | اتصور |
| ١٠ | ماراو |
| ١٠٠ | مائة |
| ألف | الف |
| مليون | مليون |

وأى طاقة أطلقتها كلمات القرآن فى هؤلاء الأجلاف الجاهلين فجعلت منهم قداميين ورسول فكر وعلم وحضارة يحسون لمصارعة الموت وهم يتسمون .

وحين بدأت أقرأ القامحة لاحظت أنى فقدت صوتى من العطش وأن حلقى قد جف تماما ونحول الى أنبوية من الخطب لا يخرج سوى الفحيح .

إن ترف المدينة والثلاندروغر وخبراء الطريق لم تستطع أن تعطبنى قوة .

إن الكهرباء والذرة والفطار والتليفزيون سوف تزيدنا رخاوة .

إننا نفقد ولا نكسب .

إن إنسان العصر ينحرف تدريجياً ويغتر ذلك التنى الذى كان عند هؤلاء المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة وهبوا كالأعاصير وغيروا وجه الدنيا .

نور القلب قبل نور الكهرباء هو مايجب أن نبعث عنه .

نبيع روح . . فتبيع بتقول لا يكفى .

نقد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض لا تملك سوى البعير والخيام واقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيرته كلمة حق .

واليوم عندنا الحديد والصلب والكهرباء والبخار والذرة ونفوس كل يوم فى الحقد والكراهية الى الركبتين وتزداد رخاوة وضعفا .

العلم المادى أضاع لنا البيت ولكنه لم يضى لنا قلوبنا .

العلم قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الفواصات والصواريخ والقنابل الذرية .

وركعت أئمة الرمال حيث تنام قلوب امتلأت عزما ومحبة وشجاعة .

وحينما كنا نعود إلى غدامس كانت أكثر من عشرين مئة توفد باسم الله .
وواحة غدامس تقع في قلب الصحراء الليبية على خط عرض ٣٠ ميالا
وارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب حدود تونس والجزائر . وتعدادها
السكاني وصل في عام ١٨٤٥ إلى ثلاثة آلاف بينهم خمسمائة عبد . وفي سنة
١٩٤٠ وصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة معظمهم من البربر والطوارق . وهو
تعداد كبير نسبياً . ففي بلد أخضر قريب مثل « فلفلت » يبلغ عدد السكان
أربعين نفراً فقط منهم سبعة رجال والباقي نساء وأطفال . وهذا كل شعب
فلفلت .

والواحة محاطة بسور منخفض يبلغ محيطه ٣ أميال . فيه عدة أبواب كان
يقف عليها الحرس سلكي السلاح .

واشتهرت غدامس بطول التاريخ أنها أكبر محطة قوافل . وكان يمر منها في
العام أكثر من ثلاثين ألفاً من الإبل .

ومن أهم خطوط القوافل التي تخرج من غدامس ذلك الخط الذي يبدأ من
غدامس ثم يتجه إلى لغات ثم تيوكتو .

وتجارة العاج وريش النعام وثراب الذهب والنساي والمطبور التونسية
والنياب المطرزة ومناديل الحرير كانت تخرج وتدخل ليلاً عبر غدامس .

وقد عرف الكثير من التجار السبيل إلى الثراء عن طريق تلك القوافل .

كتب أحدهم يقول : « قطعت ذلك الطريق سبع مرات كنت في أولها خادماً
وفي آخر مرة كان عندي سبعة من الخدم » .

وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لعالم قديم لا يعرف الطائرة ولا القطار
ولا السيارة ولم تكن له ترائين يعيش بها سوى قوافل الصحاري .

ولكن مثل تلك الرحلات لم تكن نزهة سهلة . فقد كان الموت والهلاك
يترصد المسافر في كل خطوة من الوحوش وقطاع الطرق وهلاك الإبل والموت
عطشاً وضلال الطريق وطول السفر الذي كان يمتد إلى تسهون في الحر اللافتح
وسواق لرياح . ولهذا كان طبيعياً أن يرتفع عن البضاعة إلى عنزة أضعافها
وأن يصبح الريح سخياً مجزياً . مثلاً كانت العناية الحريرية يبلغ ثمنها عنزة
خراف وكان رأس الإبل الواحد يباع بمائة وعشرين خروفاً .

ومازال تجار غدامس إلى الآن يحتفظون بالنقاب عائلاتهم القديمة . أولاد
نهاب وأولاد بكر . وأولاد النقي .

والجد الأكبر لعائلة النقي الذي بلغ من الثراء وتكدس الذهب إلى درجة
الخرافة . كان يقال إن الجن هو الذي يجلب له الذهب وأنه بدأ بأحماله بكثرة
من العملات الذهبية دمه عليه الجن .

والأرض خصبة في غدامس تنبت كل شيء حتى القطن والزيتون والرمان
والنسيم والبطيخ والطماطم والخضر ولكنها مهمة لا تنبت فيها سوى النخيل .

وأعجب ما في غدامس مبانيها . البيوت المتلاصقة ذوات التواءات المائلة
(لطرد النباطين والأرواح الشريرة) والأبواب المنقوشة بالطلاسم والتعاويذ
وخاتم سليمان المطبوع على رقاع من الجلد ومعلق في المداخل .

وجميع البيوت لصق بعضها وبها سطح واحد . والنساء يعنقن على الأسطح
ولا يبرحنها .

يجمع النساء . ووق النساء . وحياة النساء . كلها على الأسطح

ولا يرى على الأرض في السوارع إلا الرجال .

والسوارع جميعها مسقوفة وضيقة ومظلمة حالكة الظلام في عز النهار مثل
ممرات منجم تفوح منها روائح العرق والتراب . . ولا تستطيع أن تمشي فيها
بدون بطارية . .

وفي المدينة سوق للنخاسة كان يباع فيها الرقيق في الأيام الخالية .

وفيه أكثر من عشرين مسجداً . . وفي كل مسجد مقصورة خاصة
بالنساء . .

وجميع الغدامة مسلمون متمسكون بديانتهم وعندما ينادى المؤذن للصلاة
تغلق جميع السوارع وتغلق جميع المتاجر من الناس . . الكل يذهب إلى المسجد .
وهم يعالجون المجهنون بتلاوة القرآن على رأسه .

ولا أحد يسرق ولا أحد يقتل . . والغدامي إنسان وديع جدا ومسالماً جداً .

ومن تقاليد الزواج عندهم أن يبق العريس والعروس في « الخجبة » وهي
دررة أو خيمة صغيرة - متر في متر - داخل البيت لا يبرحانها لمدة سبعة أيام

والأكلة الغدامية الشعبية هي الملوخية والبازين .

والملوخية تطهى بطريقة خاصة ، فهي تحفف ثم تطحن حتى تصبح دقيقتاً
غاية في النعومة ثم تمزج بالزيت وتضاف إلى الماء وتغل مدة طويلة ثم يضاف
إليها اللحوم والبهارات وقبل من السن . . وطبق الملوخية يقدم عادة مضطى
بالزيت . .

أما البازين (وهو أيضاً أكلة طرابلسية شائعة) فهو أشبه بالعصيدة
المصنوعة من دقيق الشعير والماء المغلي وبعد النضج يضاف إليها الملح ثم تكور

عنى شكل كرة ونحوف ويوضع في قلبها الخضار والدسم .

وفي غدامس قلعة بنيت في عهد الاحتلال الإيطالي وقلعة أخرى قديمة بنيت
في عهد الاحتلال التركي .

وما زال الغدامة يذكرون اليوم الشؤ الذي جاءت فيه كوكبة من جنود
يوسف القرمالي (الحاكم التركي) إلى الواحة وأخذت بانفصب والتهديد أكثر
من ألف ورنة من الشعب أو كانت جميع النساء والأطفال رهائن وتجلبد كل من
يرفض الدفع .

وهم يذكرون أيضاً أيام الاستعمار الإيطالي الأسود سنة ١٩٤٠ حينما كان
الإيطاليون يجمعون النسيان ويحصدونهم بالحقنة لحرب الفرنسيين في الجزائر . .
وكانوا يعتقلون كل من يرفض ويودعونه السجن . . ويفرضون الضرائب على
كل تاجر وعلى كل رأس من الإبل .

وهم يذكرون ذلك اليوم من شهر يناير ١٩٤٣ حينما هاجمت قاذفات القنابل
الفرنسية غدامس نظرب النكات الإيطالية فيها وأنسعلت الخرائق وقتلت
المئات من الغداميين تحت الروم

ولكنهم يواجهون هذه الكوارث بروح فدوية تؤمن بأن الموت كتاب وتسلم
كل شيء قد .

والقبائل التي تسكن غدامس بعضها بربر وبعضها طوارق وبعضها عرب .

والطوارق يسكنون خارج غدامس في قرية « الظاهرة » .

أما البربر فيسكنون المدينة وهم مزيج من عرق بربري وعربي وينحدرون
من قبيلتين : قبيلة وليد ، وقبيلة زبد .

ومن قبيلة وليد خرجت ثلاث قبائل : ضرار ، وناسكو ، ومازيغ .

ومن زيد خرجت أربع قبائل : جرسان ، وفرفة ، وتنجسين ، وأولاد باليل .
والقبائل السبع أطلقت أسماءها على شوارع المدينة . . شارع ضرار . .
وشارع ناسكو . . وشارع مازيغ . . وشارع جرسان . . وشارع فرفة . .
وشارع تنجسين . . وشارع باليل . .

وشارع باليل هو آخر شارع دار فيه القتال بين المسلمين وسكان الواحة
وهو القتال الذي استشهد فيه السيد البدرى .

والمدينة ذات البيوت المتلاصقة والسطح الواحد والشوارع المسقوفة لها
أيضا عدة أبواب . . على كل باب تقرأ عبارة عربية منحوتة وتقرأ تاريخ بناء
ذلك الباب . . وكل باب له اسم .

على باب « أم سبيلن » نقرأ :

يا من دخل وخرج بعد الضيق نجد الفرج .

وتدخل من باب « أم سبيلن » إلى شارع مظلم يتفرع بك إلى تلك القنوات
المغربية كأنها ممرات وتفتح بك الطرقات هنا وهناك على مبدآن أو ساحة يجتمع
فيها أهل البلد في الحفلات والمهرجانات أو ملعب يلعب فيه الأطفال . .

وحفلات الأعراس عندهم بعزف فيها زمار وعدد من النساء يضربن الطبل
وهن محجيات تماما ويرقص الرجال ولا ترقص النساء البربريات .

واللغة الغدامسية هي مزيج من اللغة العربية واللغة البربرية والعامية الليبية
واللغة الطارجية (لغة الطوارق) .

وتعدد الزوجات موجود بين الغدامسة ولكنه قليل .

وتنشط البكارة في الزواج ضرورى .

وفي أحد شوارع البلدة المسقوفة نجد عدداً من الحظانات مبنية فوق أحد
أنهار عين الفرس (وجميع الأنهار التي تخرج من عين الفرس تجري تحت مبانى
البلدة . . فالبلدة مقامة فوق الأنهار) . وفي كل حمام تنمعة تضع عليها نيايك
قبل أن تنزل إلى البانيو ، والبانيو هو النهر نفسه الذى تجرى فيه مياه العين
داقنة صيفاً وشتاء .

وما زالت الأصنام التي كان يعبدها أهل غدامس قاغة خاراج البلدة قرب
قرية الظاهرة .

الرجل
معلم
و
المرأة
سافرة

وطوارق غدامس أكثر تحضراً وغدنا من إخوانهم الذين يعيشون على البداوة
والترحال والتنقل وراء المراعى في صحارى الجزائر والسودان .

وهم يتبعون قبيلة كبرى اسمها فوغاس والاسم مشتق من فغى باللغة
التارجية « أى الطوارقية » وهو اسم حيوان مفترس . . وهذا يدل على العقيدة
الطوطمية « تقديس الحيوانات واعتبارها أجداداً انحدر منها الجنس » .

وقد انحدر من فوغاس ثلاث قبائل : كل تسمى هاوت . . وكل أوراغن . .
وكل تسيللى .

وكلمة « كل » معناها اين - أى ابن نيسى هاوت وابن أوراغن . . وابن
تسيللى . . وهى القبائل الثلاث التى تؤلف الطوارق السهالة الذين يستقرون في
غربة الظاهرة خارج غدامس .

والطوارق الغدامسة مسلمون مالكية متمسكون بدينهم .

وقد غير الإسلام طباعهم وعاداتهم .

ودخل الترانزيسثور ودخلت البطارية والدراجة لتغيرهم أكثر .

وقواعد الزواج بحكمها التشريع الإسلامى . فلا زواج بين أبناء وبنات
البطن الواحدة ولا بين الأب وابنته ولا بين الأم وابنها ولا بين الأخوات في
الرضاع وبالمثل تكون المسافحة بين أمثال هؤلاء من الحرمات أيضاً .

وفى كل قبيلة فقيه يعلمها القرآن ويخرج معها في أرحالها .

وامرأة عجوز سنها ٨٢ سنة اسمها « مبروكة ايدا ماهولزا » سمعناها تقسراً
القرآن في مصحف مخطوط . . وهى تحفظ . جميع السور عن ظهر قلب .

وفى الولية الكبيرة التى أقامها لنا الطوارق جلسنا على سجاجيد وحشايه

لاشبه ينجر في غدامس مثل هؤلاء الفرسان العرب الملتزمين . يركبون المهارى
(نوع من الإبل السريعة) ويسيرون في قوافل مهيبة لا يظهر من الواحد
إلا عيانه تبرقان في ضوء الشمس . أما الوجه والرأس فيخفيهما لثام أبيض
وأحياناً ملون . والجسم يلتف في عباءة فضفاضة بيضاء أو ملونة . . وإذا
صادفت أحدهما يمشى في الصحراء خيل إليك أنه أمير أو ملك يمشى في قصر .
فهو دائماً يمشى رافع الرأس في اعتداد وخطو ثابت واثق كأنه فيصير يتفقد
ملكته . وهو دائماً أنيق رقيق معطر .

هؤلاء الفرسان هم الطوارق .

والطوارق هم قبائل متعددة غلأ الصحارى الساسعة في الجزائر وليبيا
والسودان والنيجر .

ونيرة وقدم إلى كل من فوطه نظيفة مبخرة بالمسك والعنبر وبدأت الضيافة بالدين والقر « وهم يشربون لبناً حامضاً » ثم الحروف النسوى بالكسكى « نسائى العربى ».

وقبل العشاء قدم نهاب القبيلة عرضاً لألعاب القروية على ظهور المهارى ورقصت المهارى على الطبول.

وبعد العشاء بدأ السر الذى طال إلى نصف الليل

واللغة التى يتكلم بها الطوارق « التارجية » من أصل بربرى ويقال إنها منسقة من اللغات السامية القديمة وفى رأى ثالث إنها إنتاج محلى وإن لها أصالتها الخاصة فهى وسائل التعبير الأولية التى ابتكرها الأجناس البدائية التى سكنت الشمال الأفريق من ألوف السنين.

واللغة التارجية ليس فيها حرف (د) وحرف (ض) وإنما حرف واحد يدل على الاثنين وأيضاً لا يوجد فيها حرف (س) وحرف (ص) ولا حرف (ق) وحرف (ك) وإنما حرف واحد أقرب إلى حرف الصاد والكاف.

ولغة الكتابة واسمها « تبقباخ » مؤلفة من ٢٤ حرفاً وهى أشبه بالعلامات الهندسية « دوائر ومربعات ونقط ونرط ومثلثات » وهى تنقش على الحجارة والجلود والخشب وتستعمل فى مناسبات قليلة لتسجيل الملكية أو عقود الزواج وتكتب من اليمين إلى اليسار أو من فوق إلى تحت ، وينحاطب العشاق بدمرات من أصابعهم دون نطق كطريقة سرية للتفاهم على المواعيد.

وأصل هذه اللغة غير معروف ويقال إنها من لغة الكلام من أصل سامى.

واللغة العربية معروفة قراءة وكتابة بالنسبة للطوارق القديمة.

وللطوارق أنشعار وأغان ومنشورات باللغة التارجية تتحدث عن الحرب

ورحب وانصحران والخيال وسكون النيل وجفنة العشاق متابعى الأيدى حول النار ترقصة وذلك لإحساس الذى يستولى على الحبيبين فيسرعان بحمل الطاغى للحياة والقرم وتنجوه ورقصة المصفر « مولا مولا » أمام غيمة ونسوة القلب حين يفتنى بأعمق اللواعج والمواطف.

وهو يخون أنشعارهم على الربابة « بيزاد ».

ولمجانز تحكى الحكايات والأساطير للأطفال قبل النوم ، وأسهر الأساطير لك التى تحكى أن الصحارى فى الماضى البعيد كان يسكنها ناس ينبحون كالكلاب ولا يعرفون الله وأن ملكهم عكار كان غائباً جباراً وأنه مات مغلولاً وبنيب له مقبرة هائلة من الحجارة.

وموسى خورق هى معزوفات على المزاد والطبول والسلم الموسيقى الخاص من موسيقى السودانية.

ولا يعرف الربابة « بيزاد » إلا النساء ، وإجادة المزاد علامة على حسن تربية البنات وبطل عنصرها ، وبعض الفتيات عازقات قديرات ذوات شهرة من قبيلتهن يقطع لهن الرجال أميالاً من الصحارى ليشعروا إليهن.

وعادة اللثام بالنسبة للرجل والسفور بالنسبة للمرأة عادة غريبة من الصعب تفسيرها .

والنظرية القائلة بأن اللثام يلبس كوقاية من العواصف الرملية لا تفسر لنا لماذا لا تلبسه المرأة أيضا . . والنظرية التي تقول إن الرجل يلبس اللثام ليتخفى عن عدوه نظرية غير صحيحة لأن الرجال يتعارفون على بعضهم بالرغم من اللثام .

وأغلب الظن أنه نوع قديم من التحريم الوثني الذي كان يعتبر فم الرجل عورة ' لأنه مدخل الهواء والماء والطعام . ويخرج التنفس أو هو باب الروح الذي يمكن أن يدخل منه الجن والأرواح الطيبة والشريرة ' ، ولهذا وجب أن يحجب الرجل فلا يكشفه أبدا .

والمرأة تقول في امتداح زوجها أنها عاشت معه عشرين سنة دون أن ترى له . .

وحينا يحدث أن يقع اللثام فجأة فإن الرجل يسارع بيده ليحجب له وكأنه عورة فعلا ويسارع بيده الأخرى ليلتقط اللثام من على الأرض .

ومنتهى سوء الأدب أن يكشف الرجل له أمام المرأة حتى ولو كانت زوجته .

ولا يشي بدون لثام غير الأطفال . فإذا أدركوا سن البلوغ ألبسهم أبائهم اللثام في احتفال يقام خصيصا لذلك ، ومن تلك اللحظات يسمح لهم بحضور مجالس السر وينظر لهم على أنهم أصبحوا رجالا .

إن اللثام علامة كمال الرجولة .

| الكلمة بالعربي | الكلمة بالتارجي | الكلمة بالعربي | الكلمة بالتارجي |
|----------------|-----------------|----------------|-----------------|
| عين | طيط | الكراهية | كوسن |
| وردة | طيط | الغضب | أهليس |
| الحليب | أخ | الفرح | ترامان |
| الدم | أهني | الحرب | أن مفعي |
| قر | تيني | السلام | مانا وين |
| المحبة | ترا | أهلا | ايسلا |
| الذكر | اي | الحياة | تامت دورت |
| الأنثى | تونق | الموت | تامت تانت |
| الجميل | ايناس | الله | ايلى |
| الحصان | أيس | الريح | أهو |
| شجرة | أشك | جبل | أهرار |
| صحراء | تينبرى | مهرجان | أراواضى |
| المطر | أنجى | قبيلة | تاوستت |
| الطفل | أهراء | خبز | تاكايا |
| النار | تيسى | ماء | أمان |
| الحطب | ايضا غرين | سماء | أجنا |
| الرجل | اكس | الخير | أمين |
| المرأة | طعط | | |

وحق أثناء الأكل على الرجل ألا يكشف عن فمه .. وعليه أن يأكل من تحت اللثام ومن يكشف عن فمه أثناء الأكل فهو يدل على وضاعة تربيته وسوء متبته تماما كمن يأكل بأظفاره عندنا .

أما لماذا لا تلبس المرأة اللثام فهو أمر غير مفهوم .

ولماذا اعتبرت التقاليد فم الرجل عورة ولم تعتبر فم المرأة عورة ؟ .

هذه كلها أسئلة بلا جواب .

والطوارق لا يختنون البنات .. واختان عملية مقصورة على الذكور .

وختان الأطفال يتم في اليوم السابع .

كما أن تسمية الأطفال تتم أيضاً في اليوم السابع .. يسمح أعمامهم وليس أبائهم .

والزواج يبدأ بالخطبة والأب هو الذي بخطب لابنه .

لكن البنت في الطوارق تختار في حرية .. وتوافق أو لا توافق .. والمهر عادة سبعة رؤوس من الإبل أو مايقابلها من الخراف ويتم حفل العرس بالموسيقى والغناء ' أغنية شجرة الزيتون ' وفي نظر الدكتور فرمان أن هذا دليل على بقايا وثنية لأن شجرة الزيتون من الأشجار التي كانت تعبد أيام الوثنية الأولى .

وتبدأ العلاقة الزوجية وتستمر سنة وأحياناً خمس سنوات . تذهب الزوجة كل ليلة إلى الزوج لتبيت معه ثم تعود لأهلها في الصباح ويسمون هذه الفترة فترة التأهيل .

وبعد هذه الفترة تعد خيمة جديدة بمستلزماتها يوضع فيها جهاز العروس

وتدخل امرأة عجوز لتقرأ تعاويذ خاصة لطرد الجن .. وبعد ذلك تبدأ الحياة المشتركة .

والطلاق يحدث بسبب العقم وسوء المعاملة وأمراض مثل الجذام والجنون . وعلى المرأة بعد الطلاق أن تقضى شهور العدة ' كما في الإسلام ' قبل أن يجوز لها الزواج من جديد .

والطوارق الغداسة انزراكيون بالفطرة . فإذا ذبح أحدهم ذبيحة فهو يطعم كل الجيران ويقسم الذبيحة بالتساوي على القبيلة .. ولا أحد يأكل اللحم وحده . وكذلك إذا تقدم السن بأحدهم فإن كل القبيلة تشترك في سداد حاجاته وكل واحد يعطيه نصيباً من السكر والشاي واللحم والأقنة .

ولا يوجد طوارق يشحذ .

والسارق يعاقب بالطرد والتبذ والمقاطعة الكاملة من القبيلة .

والقاتل يحكم عليه بالقتل .. والحكم يصدره الرئيس الأعلى للقبائل ' امينو كال ' .

والطوارق معمرين . والواحد منهم يبلغ الثمانين وهو يحتفظ بجميع لياقاته وفي صحة جيدة .. والسرف في ذلك هو حياة الهواء الطلق والطعام القليل وبساطة المعيشة وخلوها من القلق والهموم .

والطوارق لا يأكل إلا وجبة واحدة وباقي اليوم يشرب اللبن . وأثناء الترحال الطويل يكتفى بشرب اللبن وأكل التمر وهو يشرب من اللبن كميات كبيرة . وأحياناً لترا كاملاً في المرة الواحدة ، وهو دائماً لبن حامض .. وهو لا يعرف الخمر ولا المخدرات .. ويمضغ الدخان ولا يدخنه

وهم يحكون عن أوفانائيت الذي كان مفسوما بتدخين البيه وعاش ١١٥ سنة .

والطوارق لا يرهب عندما يحضره الموت ينطق بالشهادتين إذا كان مسلما وإلا فهو يرفع أصبعه السبابة ويطلق آخر تنهيدة .

ويعقب الموت الغسل ثم التكفين والدفن على الطريقة الإسلامية حيث يمد متجها إلى القبلة . ثم تفك خيمة الميت ويصبح مكانها حراما لا ينصب أحد خيمته فيه .

وترفع الراية البيضاء على الخيمة حينما يموت أحد فيها .

والحداد والملابس السوداء واللطم والندب والحويل أشياء غير معروفة بين الطوارق . والكلمة التي تقال عند الموت لأهل الميت : علينا أن نفرح ، فقد ذهب من نحب إلى الجنة .

والزوج يلبث ثلاثة أيام بعد وفاة زوجته في خلوة كاملة داخل خيمته لا يبرحها . .

والزوجة تظل أربعة أشهر وعشرة أيام في اعتكاف كامل . ثم بعد هذا تستطيع معاودة الحياة الاجتماعية العادية وتزوج إذا أرادت .

والزوجة لها مقام عال ولها احترام في بيت الزوجية ، وهي تشارك زوجها جميع المسئوليات والأعباء ، ورأيها يؤخذ في كل الشئون . . وتعدد الزوجات غير معروف بين الطوارق مع أن الإسلام يبيحه . . ولا تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الطوارق قد ورنوا مع ما ورنوه من تقاليد " تقديس الأم " استمرارا للقوانين القديمة التي كانت تضع الأم على رأس القبيلة وتنسب الابن لأمه

قاموس تارجي عربي

| الكلمة العربية | الكلمة التارجية |
|----------------|-----------------|
| البيض | نيسادالن |
| الخيز | تاجلا - تاكاي |
| الناس | ناس |
| القمح | ايرد |
| الفر | اينالي |
| احمر | نبق |
| البصل | ايغليل |
| السلطة | الحمر |
| السمر | تيمظن |
| تلبس | أخ |
| الدحم | ايسان |
| الدخان | تايا |
| ملعقة | تاسوكالت |
| إِنَّه الطبخ | ايغير |
| الخلو | ياطيه |
| الحمر | سم |

لا لأبيه وتعطى المرأة الحق في أن تتزوج أكثر من زوج . وأن تكون الحاكمة على أزواجها الرجال والحاكمة على القبيلة كلها .

وفي كتاب تاريخ السودان نجد بالفعل المؤلف يروي لنا أن في سنة ١٤٧٥ كانت تقطن السودان قبيلة من البربر تحكمها امرأة اسمها ييجوم كاي .

ومعنى ذلك أن نظام سيادة الأم كان معروفا بالنسبة للبربر القدامى .

وبالرغم من انقراض هذا النظام إلا أنه مازال يخلف تلك الآثار من نفوذ المرأة في قبيلة الطوارق . فالمرأة تعمل وتعزف الموسيقى وترأس الحفلات ويختار حبيبها ويختار زوجها . وترفض تعدد الزوجات بالرغم من أن الإسلام يبيح هذا التعدد سرعا .

ومن أسماء الرجال . . أوخا . اخديدي . أخيا . . أخنوخا .

وأخيا التاريخي كان فارسا شهيرا حارب الأتراك في غات وقتل حامها وقاد ثورة مطالبا بالامتيازات السياسية .

وأخنوخا التاريخي عاصر نابليون . . وأرسل له نابليون الرسل ليعقد اتفاقية بين فرنسا والطوارق فرفض أخنوخا . .

ومن أسماء الفتيات . . فتاتا . . ومالا .

القبائل
بحك
الانف
بالانف

وكل تلك القبائل كانت من أجناس ما قبل التاريخ ، من ذلك الجنس الذي ظهر في الشمال الأفريقي والذي يعرف باسم « كروما جنون » .

ويقال إن أصل الطوارق من البربر وأصل البربر من جنس الكروما جنون .

وفي أحد الآراء أن الفراعنة أنفسهم من البربر . ويساق هذا الرأي كتفسير للطفرة الحضارية التي حدثت في وادي النيل وكيف كانت بتأثير هجرات من الكروما جنون والبربر .

ومعنى هذه النظرية أننا سنلتق مع الطوارق في سابع جد .

وفي رأي آخر **لأن** أصل الفراعنة أسبوي .

والكلام كبير **في** أصل الفراعنة والحقيقة غير معروفة . .

لكن مما لا شك فيه أن الصلات بين مصر وليبيا عن طريق التجارة والهجرة والحروب لم تنقطع طوال التاريخ القديم .

أما الطوارق البيض والنقر ذوو العيون الزرقاء فهم من دعاء أوربية جاءت إلى الشمال الأفريقي عن طريق البحر في الزمن القديم . . وفي قول آخر أنهم من أصل أفريق **حقيقي** وكري .

وطوارق الجنوبيين السود ذوو التقاطيع الزنجية من أصل سوداني جنوبي .

والمؤرخون العرب لهم نظرية خاصة في أصل البربر . . يقول ابن عبد الحكم إنهم من فلسطين **عوانهم** هربوا بعد مقتل ملكهم جالوت بيد النبي داود وهاجروا إلى ليبيا .

ويتحدث صاحب المسالك عن هجرة قبائل الهوارة والزنانة والداريسة

بدو أن قلب الصحراء الليبية كان مسرحاً لإنسان ما قبل التاريخ . . تدل على ذلك الترواة المائلة من الآثار والمخلفات من العصر الحجري . . ما تكاد تحفر في الرمل حتى تعثر على تلك الآلات العجيبة . . سكاكين وبلط وحرايب وسهام وصنابير ومبارد حجرية وأبر من العظام . .

وتلك التلال من الحمى المرصوص عند أقدام الجبال هي مائتي من سواهد الدافن القديمة . ما تكاد تحفر تحتها حتى نجد مئات من الهياكل العظمية والآمية لهؤلاء الذين رقدوا رقاد الموت منذ عشرة آلاف سنة .

وعلى جدران الكهوف ترك الفنان الأول رسومه الأولى وأولى مضامراته في عالم الفن . . صوراً محفورة بأناقة مذهلة وملونة للفرال والزراف والنور والرقص والصيد والزواج والحب ومنها قبل أن يعرف كيف يكتب وكيف يتكلم .

واخيلة وانتشارهم بين طرابلس والدواخل الصحراوية .

ويقول ابن خلدون إن البربر هم أولاد كنعان وتوح .

أما الرأي الأوروبي الذي يقول بأن الطوارق فينيقيون هربوا من وجه الإسكندر المقدوني فهو رأي خاطئ لأن وجود هذه القبائل قديم ونابت منذ أيام هيرودوت وقبل الإسكندر بزمان طويل .

ومن طريف الملاحظات ما كتبه هيرودوت يصف جيلا سماه بجبل الأطلس يقول هيرودوت :

« وقد وجدته جيلا مرتفعا شديد الانحدار من ناحيته حتى يستحيل على الناظر أن يرى قته التي يغطيها الضباب صيفا وشتاء . ويقول سكان الوادي إن هناك على القمة تقوى دولة السماء ويسكن أهل الأتلانتيس » .

ورد هذا الكلام في رحلة هيرودوت إلى شمال أفريقيا ووصوله إلى منطقة طوارق الهجارة في الجزائر . وأغلب الظن أنه قصد بالقمة التي وصفها القصة المعروفة الآن « مونت أودان » .

ولكن خرافة دولة السماء وقارة الأتلانتيس ما لبثت أن تناولها أفلاطون ليجعل منها المسرح الخيالي لجمهوريته حيث تصورهما جزيرة في وسط البحر يسكنها صفوة من المثاليين ويقوم عليها مجتمع غوثجي هو الذي وصفه في جمهورية أفلاطون .

ثم انتقلت خرافة الأتلانتيس لتصبح القارة المفقودة بين أفريقيا وأمريكا التي ابتلعها المحيط وحق عليها عقاب الإله العادل حينما خرجت عن طاعة الله . (قصة أسبى بالجنة وطرد آدم) ومنذ ذلك الحين دخلت قارة الأتلانتيس إلى كتب القبيبات وتحولت إلى لغز مثير . والأصل سطر كتبه هيرودوت في رحلته

إلى طوارق الهجارة . .

هيرودوت يسمى قبائل الطوارق « ناسامون » ناس آمون ويذكر عنها أنها قبائل تصطاد الجراد وتحفقه في النمس ثم تطحنه وتخرج الدقيق الناتج باللبن (وهي عادة موجودة عند بعض الطوارق إلى الآن) .

ويذكر هيرودوت أن ناسامون لهم أيام مقدسة يترددون فيها على قبور أجدادهم لأخذ منورهم في أمور الحياة الدنيا أو لسؤالهم عن المستقبل . (وهي عادة مازالت متبعة عند نساء الطوارق يبتن إلى جوار المقابر ليحلمن بأخبار المفقودين والغائبين) .

ويذكر هيرودوت طريقة تصفيف الشعر وتسريحه عند الطوارق بما يتفق مع الملاحظات الشاهدة حالياً .

وقد لعت أسماء غريبة لرحالة ومؤرخين ذرعوها رمال الصحاري وألفوا التراجم القيمة أمثال : البكري . . والادريسي . . ابن سعيد . . ابن فاطمة . . أبو الفدا . . وابن بطوطة .

يقول ابن بطوطة انه عبر الصحراء الليبية لقبيلة برداما وهي قبيلة من البدو الرحل لا تستقر في مكان وغتار بأن نساءها جميلات سميات ويقول فبين ابن بطوطة انهن أحمل ما رأى من نساء العالم .

ويضرب ابن بطوطة في الصحراء شهوراً يخترق فيها مناطق جرداء لاما . فيها ولا شجر ويصف لنا مناجم للملح والنحاس ومياه حديدية تفسل فيها عيالك فيود لونها . . ثم يصف لنا صحبته لقافلة بها سائة فتاة من الرقيق . . ثم يصف لنا وصوله أخيراً إلى منطقة الهجارة ورؤيته لقبيلة عجيبة . رجالها ممنون وتساووا سافرات « الطوارق » .

ولم تترك هذه القبيلة أثراً طيباً في نفس ابن بطوطة . فقد استوقف بعض فرسانها قافلته وأخذوا منها أقتة ويضائع . وكان ذلك في رمضان . ويقول ابن بطوطة عن حرمة شهر رمضان إنه حتى لصوص الصحاري يتعففون في هذا الشهر عن السرقة فلا يبدون أيديهم إلى شيء ولو كان مفقوداً وبلا صاحب .

أما ابن خلدون فينقل ما يرويه عن الطوارق من شهادة الآخرين .

أما الرحالة الأوروبي انتونيو مالفوتى . فيصف الطوارق بأنهم جنس راق وفرسان على درجة عالية من النبل والشجاعة . ويقول إنهم يعتمدون في طعامهم على اللبن والأرز واللحم . وإنهم ألد أعداء اليهود ، ولا يجزؤ يهودى على الاقتراب من مضارب خيامهم .

ويقول هيرودت إن عبادة الأجداد كانت متبعة في ليبيا القديمة . . وبالنسبة للصحراء الليبية القريبة من مصر كانت عبادة إيزيس وتقديم القرابين للنمس والقمر وتحريم أكل الخنزير ولحم البقر طقوساً متبعة . . وبالنسبة للجزء الشمالى من الصحراء كانت الآلهة أمثال إله البحر والخصب والمطر تبتد . . وكانت القرابين البشرية تقدم في القرن الثالث قبل المسيح .

ومن المحتمل أن يكون الطوارق الأوائل عبدوا آمون . . ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك في الرسوم والحقائر القديمة . . فلم يمتز إلى الآن على رسم قرص الشمس المعروف .

والرأى الآخر أنهم كانوا يعبدون الحيوان أمثال الثور والبقرة والزراف (العقائد الطوطمية) . يدلل ما وجد من رسوم جميلة ومفصلة لهذه الحيوانات .

وبالرغم من وجود رسم الصليب في بعض الآثار التاريخية إلا أن دخول المسيحية إليها أمر مشكوك فيه . . وفي رأى ابن خلدون أن المسيحية لم تدخل الصحراء الليبية . . وهو رأى خاطئ لأن المسيحية دخلت غدامس أيام

البيزنطيين والرومان .

ولكن ابن خلدون يقول رأياً مختلفاً في الديانة اليهودية . فهو يعتقد أن الديانة اليهودية تسلمت إلى الصحراء وأن اليهود انتشروا في قبائل الهوارة بالذات .

ويحتمل أن يكون بعض أجداد الطوارق من اليهود ولكن الأمر المؤكد أن الإسلام اكتسح هذه القلة .

وقد دخل الإسلام الطوارق مع عقبة بن نافع وانتشر بين كل القبائل النارجية . ولكنه بالنسبة لطوارق الجبل والدواخل الرجل كان إسلاماً طعياً . فعظم العادات الوثنية ظلت على حالها وظلت اللغة على حالها وبق القرآن كتاباً يقرأ بطريقة بيضاوية دون أن يفهم . مثله مثل التصاويذ الغامضة الأسطورية .

وهناك مدارس الدين واللغة العربية والقرآن . ولكنها قليلة جداً . وهي بالنسبة للقبائل الرجل غير معروفة .

ومع ذلك فقد ظل الإسلام على ضعفه هو علم المقاومة الذى نجح تحت رايته الطوارق الذين حاربوا الاستعمار الفرنسى والإيطالى .

والاعتقاد في الجن والأماكن المسكونة والأرواح الطيبة والشريرة التى ترتاد البنايع والجداول . . والاعتقاد في الأشجار التى تلبسها الأرواح . أكثر رسوخاً عند الطوارق الرجل من العقيدة الإسلامية الزائرة . .

ومضى مؤلف أن ترى رجلاً من الطوارق يرمم نسيجة ليترد منها الجن . . أو امرأة تملق شيئاً قديماً على باب الخيمة لتطرد الأرواح الشريرة . أو تستعمل قرن خروب لمنع الحسد . . أو عجوزاً تباع أحجية وتصاويذ أو جلد

| الكلمة بالعربية | الكلمة بالتارجية |
|-----------------|------------------|
| الأصبع | ايضض |
| الأنف | تيهار |
| الفم | ايي |
| اللسان | ايلس |
| الذفن | تامرت |
| النسر | أهيواف |
| اليطر | تاسا |
| القلب | اوول |
| الكبد | أوسا |
| المقل | تايق |
| النج | آكلكل |
| الأسان | أيسان |
| الكف | دبكل |
| الذراع | أفوس |
| الساقي | أبر |
| القدم | آزره |
| الأن | تاما ظوج |
| الأظافر | أسكارن |
| الظهر | آروري |
| الأكشاف | ايظمين |
| الرأس | ايضاف |

بقرة للموقاية من لدغة العقرب والتعبان . وهم يشمون جلد بقر الوحش كعلاج من لدغة العقرب .

والطاري الذي يعلم بأنه يأكل البلح يفسر حلمه بأنه سوف يصاب بجراح . فإذا حلم بتعبان فهو سر مستطير . وإذا حلم بأنه يحمل راية يعتقد فهو فأل حسن . وإذا حلم بأنه يحمل راية سوداء فهي كارثة .

وخرافة شائعة أن الذي يصاب بجرح يمتنع عن شرب اللبن اعتقاداً منه أن اللبن سوف يساعد على تكوين الصديد .

ومعظم هذه العقائد هي بشايا وثنية لم يستطع الإسلام أن يحسوها من الأذهان .

وقد ظل الطوارق يعيشون حياة مستقلة في أغلب فترات حياتهم . ثم استطاع الغزاة من الفرس والرومان ولا التتار والمكسوس والوندال أن يقتحموا أسوار هذه العزلة ليعدها ولأن متاهات من الصحاري الجرداء كانت تحمي هذه العزلة من كل جانب .

ولهذا استطاع الطوارق أن يصنعوا لأنفسهم حياة وعادات وتقاليدهم وأعرافهم وطبائعهم انفراداً بها ومازالوا يتميزون بها .

وكلمها توغلنا في الصحراء وخرجنا من غدامس إلى أطراف البادية ومراعي الجبال والتقينا بالطوارق الأول الذين مازالوا يعيشون حياة الفطرة والتنقل بين قبائل الهجارة في الجزائر والسودان والنييجر . استطعنا أن نتعرف على تلك

العادات البدائية التي ما زالت على حالها لم يذهب الإسلام... ومنها تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها الأولاد والبنات... فقد أن يبلغ الولد سن الخامسة عشرة ويضع اللثام ويصبح رجلاً... يصبح له الحق في حضور «الهال» وهو مجلس الكبار حيث يتامر الكل في جو مختلط مفتوح في شبه حفل يبدأ بعزف الموسيقى (الجزاد)، وتعزفها في العادة فتاة ثم السمسم الغزل فيميل كل شاب على الفتاة إلى جواره يقبلها بحك الأنف في الأنف ويتواعدان على اختلاس اللقاءات في الخلاء... ويحدث عادة أن تتم اللقاءات المختلصة في نفس الليلة حيث يمارس الأولاد والبنات لعبة الجنس بلا حرج وبلا حمل.

والبكارة شيء غير معروف في الطوارق (بحسب الأب فوكو والدكتور غولان).

وفي حالات الحمل النادرة تذهب البنت إلى الداية فتكتب لها تعويذة تذيبها في الماء لتشرها فإذا لم يحدث الإجهاض قامت بإجهاضها. فإذا حدثت الولادة يفتق المولود... والبنت التي يعرف عنها أنها حملت دون زواج ينظر إليها في احتقار من الجميع.

وبسبب حرية العلاقات الجنسية فإن الزواج لا يحدث إلا في سن متأخرة ثلاثين سنة بالنسبة للرجل وعشرين سنة بالنسبة للبنت.

وتبادل الجنس ليس عاراً عند الطوارق وإنما العار أن يكون ذلك بين رجل وجاريتته أو امرأة وعبيدها.

ومن الصعب الحكم على السلوك الجنسي للمرأة بصدد الزواج من حيث الخيانة والوفاء. ولكن من المعلوم أن عقاب الزانية هو الموت... ومن المعلوم أيضاً أن الرجل قد يخون زوجته مع جارياته وعبدانه... وفي حالة حمل إحدى هذه الجاريات تكون فضيحة ويحدث في مثل تلك الحالات أن تغضب الزوجة

عند أهلها ولا تعود إلا في حالة دفع تعويضات مادية كبيرة.

ومن التقاليد العجيبة أن لقاءات الجنس بين العشاق تتم في خلوة وخصوصية. فإذا ضبط عزول هذه الخلوة فعلى العشيقي الذي افتضح أمره أن يبادر بإهداء العزول هدية فورية. وإلا فإن العزول يرفع اللثام كاشفاً عن شخصيته ويصبح له الحق في أن يحمل يحمل غريمه في خلوته...

مباحث
غریبہ
لکھے
الخلایہ

والتزاج بين فارس وجارية أمر مستهجن جداً ومشين .

والفرسان لا عمل لهم إلا الحرب وحراسة القوافل والسطو على الأعداء ،
وهم يحتقرون الحرقين ويعتبرون العمل اليدوي وضعيفاً .

وتستطيع أن تعرف الفارس من منبته ، فهو يختال في خطواته ويختال في
كلماته ويتأنق في ملبسه وأحياناً يلبس ثامناً أحمر زيادة في الأناقة .

ورجل الدين « شريفن » من الكلمة العربية شريف . . له مكانة محترمة في
قبيلة الطوارق ، وهو يعنى من الضرائب ، ويعتبر في مستوى الفارس بالنسبة
للمكانة الطبقية . . وهو الذى يدرس القرآن والشريعة الإسلامية لأطفال
القبيلة .

والعبيد والجواري وكلهم رقيق وأسرى غنمتهم القبيلة في حروبها أو اشتريتهم
من عجار النخاسة . . يعاملون بإنسانية ، فالعبد يمكن أن يمتلك رءوساً من الماشية
أو حصاناً ، وهو إذا بلغ سن الزواج فإن سيده يعطيه مهراً ليتزوج . . وإذا
أنجب السيد من جارية فإن الابن الذى ينجم من العلاقة يحق له الميراث . .
ويستطيع العبد أن يخرج من خدمة سيده ليتحق بخدمة سيد آخر بسبب سوء
المعاملة . . وإذا تزوج السيد من جاريته فإنها تصبح حرة . . وبعد إلغاء الرقيق
نحول العبيد إلى خدم وظلوا ملازمين لقبائل ساداتهم . .

أما أصحاب الحرف فهم فئة محتقرة وكل من يزاول عملاً يدوياً محتقر عند
الطوارق . والطارق يخاف من الحداد ومن كل من له صلة بالنار أو من يطرق
المعادن ويظن أنهم على صلة بالشياطين والجنان ولذلك يسكن بعيداً عنهم
ويتجنبهم .

والحلاق عند الطوارق يحلق الشعر ويخلع الأسنان ويقوم بالعمليات الجراحية
الصغيرة كالطهارة وإيقاف النزيف وعلاج الجروح .

يجتمع الطوارق مجتمع طبق . . . على رأس جميع القبائل نجد الأمير « أمينو
كال » وهو الحاكم الأصلي لجميع القبائل ويوصل إلى الحكم وراثة عن أبيه
كالنظام الملكى . . ورمز الامارة طبل كبير يطلق على باب خيمته ويقرّع هذا
الطبل عند قدوم الضيوف أو في الحفلات أو في الحروب . . وغرقى الطبل هو
أكبر إهانة يمكن أن تلحق بالأمير .

والأمير هو الذى يعلن الحرب ويدير خططها وهو الذى يفضى العلاقات بين
القبائل ، وله خليفة ينوب عنه في غيابه . . وهو يتقاضى الضرائب من جميع
القبائل .

ويل أمينو كال في السلم الطبقى شيوخ القبائل ثم الفرسان ورجال الدين ثم
الرعاة ثم الحرقون وفي المقاع نجد العبيد والخدم والجواري .

والحرفيون يعتبرون من جنس مشبه . وهم يتعمون بالتجسس أحياناً وبالخيانة ولكن لا أحد يجزؤ على قتل حرفي لأنه يخشى من انتقام الجن لروحه .

والحرفيون أذكاء وحكماء ، وفيهم من يتقن الكتابة ومن يلقى الأفاحيص والحكايات وبعضهم يرقى إلى درجة مستشار الأمير .

وهم يتكلمون بكيفية الطوارق ، ولكن لهم لغة خاصة سرية يخاطبون بها ، وهم تعاويذ وطقوس خاصة . . وهم لا يزيدون في مجموعهم عن خمس أو ست عائلات .

والمعتقد أنهم من أصل يهودى وأنهم مهاجرون من فلسطين . يدل على ذلك تلك المطروقات القضية الأنيقة الراقية والمفاتيح والأقفال المعقدة التي يهمنونها والتي لا تتناسب مع الحياة البدائية التي يعيشها الطوارق . وتدل أيضا عاداتهم العنصرية في عدم الزواج من خارج جنسهم .

واسم هذه الفئة العاملة باللغة التارجية « ابتادين » أى (من لا اسم لهم) وهذا إيمان في محقرهم .

وبعض قبائل الطوارق غنية نسبياً ، ففى قبيلة مثل كيل هجار أكثر من عشرة آلاف رأس من الإبل . وفى قبيلة أخرى مثل داج رالى لا تزيد الإبل على ألف رأس . بينما قبيلة ثالثة هى التأتبوك لا تزيد لرونها على ثلاثمائة رأس .

والطوارق يعتمدون فى حياتهم على الرعى والصيد متقلبين من ودا إلى واد إلى حيث تجود المرعى ويكثر المطر . وأهم محصول طبيعي يتاجرون فيه هو الملح ، يحملون به القوافل إلى السودان لتعود بالتالى محملة بالأنقسة والحبوب . فإذا نسح المطر وجف المرعى انتشروا فى الصحارى والجبال يقطعون الطريق على القوافل . . فإذا استمر الجفاف نزحوا إلى السودان .

وهم فى الشتاء يفضلون سكنى الوديان المنخفضة فى أحضان الجبال التى تحميهم من الرياح . . وفى الصيف يفضلون سكنى الأعالي والقمم حيث الجو طليق .

وكل قبيلة لها مضارب خيامها ولها مجالاتها الخاصة التى تتحرك فيها وهم تعود من موسم لموسم لتقضى الأماكن التى بدأت منها .

والخيام تصنع عادة من جلد الماعز . يدهن بالزبد وبمادة حمراء لوقايتها من الشمس والمطر .

والمعتقد أن ينثم الرجل فى ترقى الخيمة ومعه الأولاد بينما تنام الزوجة فى غربها ومعها البنات .

ولا ينثم على سرير إلا الأمير وسيوخ القبائل .

أما المطبخ فهو دائماً خارج الخيمة وهو عبارة عن موقد حوله بعض الطوب والحجارة المحيطة من الريح .

وهم لا يستخدمون حجارة البازلت السوداء لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بالجن والسبب أنها تفرغ بصوت شديد بتأثير النار .

والثار عند الطوارق لها أسطورة مقدسة . . فهم يقولون أن النار خلقها الله للإنسان ليظهر عليها طعامه ولكن الشيطان عرف سرها وسرقها ثم أعطاها لصديقه الحداد ليصنع بها الحديد ولهذا خلق الله الجمع وخصصها للشيطان عقاباً له على سرقة .

وهم لا يوفدون النار فى داخل الخيمة وإنما دائماً خارجها .

والآثاث عبارة عن صندوق ومخللة بها ملابس وعدة أطباق وملاعق خشبية وأوتد لتثبيت الخيمة وإناء للدهن وطاسة لحليب اللبن وأكواب وفناجين .

والمرأة هي التي تنصب الخيمة وهي التي تفكها وتحملها على الحمير وهي التي تصنع الأدوات الجلدية والأطباق والأوتاد الخشبية . . وهي تستعمل في تنقلاتها الحمار ولا تتركب الإبل إلا من كانت زوجة لغارس أو أمير .

وكل قبيلة تخزن ما عندها من فائض التمر والحبوب والمواد الغذائية في مخازن وكهوف بالجبل ، وعندهم عقيدة أن الله يرعى هذه الخفافيش ويسهر عليها بنفسه . . وهم يهاجرون ثم يعودون إليها فيجدونها على حالها ، فالتارجي لا يمد يده أبداً إلى مثل تلك الخفافيش . . وعقاب السارق في مثل تلك الحالات شديد .

وهناك أكثر من ستة أصناف من الأعشاب الجبلية والجذور بما يأكله التارجي أثناء الطريق هو وموانيه ليهدي جموعه .

واللبن والزبد والجبن والحبوب والتمر هي غذاؤه الرئيس ، وهو يأكل اللحم في حالات قليلة حينما تنسرف إحدى موانيه على الموت فيذبحها وحينما نجف المراعى فيذبح الناقة التي يراها تموت جوعاً أمامه . . وهو يأكل الأراب والغزلان والجراد . . والجراد المنسوى طعام فاخر عنده . . أما لحم الدجاج فيعتبر نجسا مثل الخنزير وبالمثل السمك . .

ولا يجوز أكل ذبيحة لم يقرأ عليها اسم الله ولم تذبح وفقاً للتريعة الإسلامية . وواضح من أنواع التحريم أنه يجمع بين التحريم الإسلامي والتحريم الوثني .

والأكلة الشعبية هي نوع من العصيدة باللبن .

وهم يستعملون الجبن المجفف والطماطم والبصل في تصنيف ألوان من الصلصات . وفي حفلات الزواج والحفلات الدينية تذبح ناقة وتنسوى على النار وتقدم مع الكسكى ويحفظ الرأس والعنق للنساء ، ويقدم الفخذ والموزة والضلوع للضيوف .

وهم يأكلون بالملقعة . . وعادة الأكل بالملقعة عادة غريبة بالنسبة للحياة البدائية التي يحياها التارجي ، ولكن تفسيرها هو حرصه على عدم رفع اللثام أثناء الأكل وبالتالي احتياجه إلى وسيلة كالملقعة لدس الأكل في فمه .

والإبل والماعز والمائسية والحمير والكلاب هي الحيوانات التي يربها التارجي .

وهم في العادة يختمون إبلهم بعلامات خاصة ، كل قبيلة لها علامة مميزة تختصها على رقبة الجمل أو قنطرة بطلاء أحمر .

ورأس إبل عندهم أنثى من وزنة ذهب . أما الحمير فلا يهتمون بها ، وأحياناً لا تعرف القبيلة عدد حميرها وأحياناً حينما يشح المرعى تترك القبيلة جزءاً كبيراً من حميرها وترحل .

وهم يصطادون الغزال وبقر الوحش والزراف . . يخرج أربعة من الطوارق معهم عشرة كلاب في فرقة صيد ويطاردون الفريسة حتى تسقط إعياء ، وهي في حالة الغزاة وسيلة كافية ، أما بقر الوحش ، وهو حيوان شديد البأس ، يدافع عن نفسه حتى الموت فيحتاج الأمر إلى حصار وقتال بالحراش أحياناً يذهب ضحيته عدد من الكلاب أو الصائد نفسه .

ولكنهم الآن يستعملون البنادق في كل شيء بدرجة تهدد وحوش الصحارى بالانقراض .

والثقافة المتبعة إذا طاردت قبيلة حيواناً في أرض قبيلة أخرى واصطادته أن تعطى جلده ورأسه وتصيباً من اللحم للقبيلة صاحبة الأرض .

والطوارق رحل لا يزرعون الأرض احتقاراً للعمل البدوي واحتقاراً للاستقرار ولكن في بعض الأماكن حيث يفرز المطر وتكثر العيون الجوفية تجدد

التارجى بزرع القمع والشعير والجزر والعدس واليصل والبطيخ والنسج . .
وتجد حدائق من التين والعنب والتخيل .

لكن مثل تلك المزروعات تصبح تحت رحمة الحر والبرد والعواصف
والسيول والجفاف وجذب الأرض وافتقارها مع تكرار الزراعة . . والتارجى
ليس عنده طول بال الفلاح ولا صيره . وهو ما يلبث أن يهجر الأرض التي
أجدبت دون أن يفكر في إصلاحها .

وهو حينئذ يزرع غلياً كل لا لبيع .

وسعادته وهو يضرب في الفلوات تعدل محصول ألف فدان . . يكفيه ما يجلب
من ألحان إبله وما يقطع من بلح ونر في الطريق وما يجود به المرعى ، فإذا
جف فأرض الله واسعة .

وليست من عادة التارجى الاغتسال يومياً بسبب نصح الماء في الصحارى .
وهم يقولون ان الاغتسال يومياً ضار بالبشرة وهذا صحيح نظراً للملوحة المياه
وجفاف الجو كما أنه يؤدي الى تسقق الجلد . . وهم لهذا يستعملون الزبد
للمنظارية . . وينوضأون للصلاة بطريقة التيمم (بالرمل الجفاف بدون ماء) .

ولكنهم شديدو العناية بأسنانهم فهم يستعملون السواك والمضمضة بالماء عدة
مرات بعد الأكل .

وهم يحلقون للأطفال رؤوسهم الا خصلة يتركونها في الوسط .

والنساء يصفرن سمورهن خضفات كثيرة على الجائتين ويستعملن الزبد
للشعر .

والنساء والرجال يحلقون شعر العانة ويقصون أظفارهم ويكحلون عيونهم .

ومخلفات الشعر والأظافر تدفن في مكان بعيد حتى لا يسحر عليها أحد أو يقرأ
عليها تعاويذ مهلكة .

والونسم غير معروف لكن المرأة تستعمل الأحمر للزينة .

وفي المهرجانات قد نجد امرأة تنقش على وجهها رسوماً عجيبة (طريقة
الخي) . وترقص كنوع من التهريج أو كبقايا طقوس وتنية .

والمرأة النارجية أقصر من الرجل وأكثر سمرة واستدارة وهي ذات عيون
واسعة كحيلة وجبهة عالية ويدين دقيقتين رقيقتين . . والسنة عنصر هام في
الحاذية الجنسية عند النساء وهن ينوسلن اليها بكل طريقة ويأكلن أنواعا
خاصة من الأعشاب يعتقدن أنها تسمن (كالمفتقة عندنا) .

علاج
الامساك
بشجر
الاجرجر

والأمراض عندهم فهان : مرض جسدى يعالج بالأدوية ، ومرض روحى يعالج بالسحر « أمى كيلو » .

وعلاج من تلبسه الأرواح الشريرة هو إلقاء الرعب فى قلبه عن طريق رقصة بحيقة بالأقنعة تتخللها الصرخات والطبول حتى يفقد الوعى ويدخل فى غيبوبة تخرج أثناءها الروح الشريرة وتفر مذعورة ولا تعود .

وهم يارسون الجراحات البسيطة كالطهارة وعلاج الجروح وتجبير الكسور والقطع الحادث بعد الطهارة بدهن عادة بالزبد .

والأناقة وحسن المظهر مسألة غاية فى الأهمية بالنسبة للتارجسى . . أهم من الطعام أن يتأنق ويختال . .

والطوارق أصحاب قامة طويلة وفرع باسقى وأكتاف عريضة . وهم يرفعون رؤوسهم فى اعتزاز حينما يمشون كأنهم أمراء أسطوريون . ويلبس الواحد منهم سروالا واسعا يغطى قدميه . وفوق السروال عباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء أو ملونة . وعلى الرأس تلبية تلتف كالعمامة وتغطى الرأس ثم تنسدل كاللثام فوق القم والأنف فلا يرى ظاهرا منه إلا العينان السوداوان اليراقطان . . وفى القدمين بلبس صندلا .

والرجل يشعل بالخواتم الفضية المزركشة والأساور المنقوشة من حجر النيسيت . . وعلى الأساور يكتب عادة عهدا بالوفاء لمحبيه أو دعوة بالقوة والتوفيق فى القتال . .

وهم يتنافسون فى حمل الأكياس الجلدية الأنيقة . . جراب جلدى للولاعة . . وجراب جلدى للسواك . . وجراب جلدى للإبر . . وجراب جلدى فيه أية قرآنية أو تعويذة . . يحملها فى سلسلة مدلاة على صدره . .

الطوارق أطباء بالفطرة .

وهم يطيبون المرضى بالفصد والكى والحفن الشرجية والعلاج بالأعشاب . وعندهم ما ينسبه تذكرة داود وعلم غزير بالأعشاب القابضة والمسهلة والمخدرة والمدررة للبول والمقوية للقلب ، ويستعملون الورق المغلى والمجفف والمسحوق والبذور والجذور بقطنة رجا . . وصلت إليهم عن طريق العرب .

وهم يستعملون لبن الحمير كعلاج للسعال .

ويحفظون شجرة الأجرجر ويدقونها ويستعملونها علاجاً للإمساك .

ويداؤون الإسهال بشجرة النبق .

وبالنسبة للنساء هناك تصانيف أكثر من الخلى . . هناك خواتم من الفضة كبيرة ذوات الفصوص وأحياناً بدل الفص تحد علية صغيرة للعطر . . وتلبس المرأة اثنين أو ثلاثة من هذه الخواتم الكبيرة في انيد الواحدة . . وهي دائماً من الفضة . . لأن الذهب مكروه عند الطوارق ولا أحد يتحلى به لأنهم يعتقدون أنه مجلبة للشر والطمع .

وهناك رواية يروها مؤلف من تيوكتو عن رئيس الطوارق (أكيل) الذي كان يرفض أن يلمس الذهب بيديه لأنه يجلب النحس .

والأساور المنقونة من الفضة والمخللة بفصوص اللؤلؤ . . والأساور الزجاجية والأساور الجلدية المخللة بفصوص كريمة . . والقلائد التي تتدلى من العنق وفيها فص من العاج . . والكردان . . واليشتيف ذو الفص الأحمر من المرجان . . والدلايات الفضية المزركشة . . كلها حلى ضرورية بالنسبة للمرأة . . والحلق يكون عادة من الفضة كبير ويندلى على العنق .

وفي الشهور والصفائر حلى أخرى تتدلى على الظهر . . هذا عدا الأحذية الفضية وجراب الكحل وجراب الإبر .

والنساء لا يلبسن هذه الحلى إلا في الأفراح والمهرجانات .

أما في الأيام العادية فتودع هذه الحلى في صناديق ذوات أقفال حديدية يحمل التاريخ مفتاحها في حله وترحاله .

والمرأة التارجية صانعة ماهرة . فهي التي تسليخ الجلد وتديقه وتصفله وتصنع منه الخيام والحلى الجلدية والصنادل والحفائب . . وهي أيضاً التي تصنع من الخشب أوتاد الخيمة والصحون وآواني الحليب . . وهي التي تصنع من القش القبعات والحصر . . وهي التي تنزل من قراء الماتية الخيال المتينة .

وهي تؤدي عملها دائماً بدرجة عالية من الدقة والتفنن .

والفتيات ذوات المنبت العريق يتفاخرن بما تصنع أيديهن من تلك الأدوات ولا يتركنها للعبيد . وإنما يصنعنها بأيديهن ويقدمنها هدايا حب لأصدقائهن . وصناعة الجلد والخشب والقش والصوف هي الصناعات التارجية الأصيلة وهما تقاليد وأسلوب وخصائص وملامح مميزة .

أما الحدادة وصناعة المطروقات وتشكيل الفضة والنحاس وصناعة الأقفال والمفاتيح والولاعات فيختص بها «الابنادين» كما ذكرنا . وهم من أصل يهودي . وهم يعتمدون على صهر العملة الفضية كمصدر لحام الفضة . . أما الحديد فن صهر الخردة والعلب الفارغة التي يجمعونها من الطريق . . والنحاس من صهر الخرطونس الفارغ . . ويصنعون منه الأقفال والسكاكين والإبر والملاقط والأدوات الدقيقة .

أما الأسلحة فهي مسنودة في أغلب الحالات . . لكن بعض القبائل التي تكن في أماكن يوجد بها خام الحديد بكثرة تشتغل بتعدين الحديد وتصنع الخناجر والحراب والأسلحة .

أما صناعة الفخار فقد استخدمها العبيد . . وهم الذين أدخلوها للطوارق . . وهم الذين يصنعون الطواجن الفخارية والآواني المختلفة .

ونظام القوافل في الطوارق يختلف عن نظام القوافل عند العرب . فالطوارق يركبون دائماً في مقدمة قوافلهم لاستكشاف الطريق ويتركزون وراءهم مرشدين يوجهون الإبل للاحتفاظ بالصف (والسبب هو ارتفاع وهبوط وتعرج الطرق الجبلية) . .

يتم بركب العرب في مؤخرة قوافلهم ويتركبون الإبل شبه حرة دون مرشدين

لسبب واضح أنهم يكتنون قلاوات منبسطة لا عوائق فيها وهم لهذا يكتشفون الطريق كله من مكانهم في المؤخرة ويوجهون خط السير دون صعوبة تذكر ويدعون الفرصة للإبل لتنتقل وراء العشب كيفما شاءت دون قيود الصيف ، فالأعشاب شحيحة ومتفرقة في الصحارى وليست بالكثرة ولا التركيز كما هي في الوديان الجبلية . .

والطوارق أحياناً يؤجرون لحراسة القوافل التجارية مقابل نصيب معلوم من البضائع ، وأحياناً يعطون الأمان لقافلة تمر في أراضيهم مقابل ضريبة محددة ، وأحياناً يقدمون إبلهم ومرشديهم للقوافل مقابل عمولة . . وهي مناسبات تشكل لهم مصادر سخية للدخل .

ولم تكن هناك عملة مصكوكة خاصة بالطوارق ، وإنما كانوا يتعاملون بالمقايضة ويعتبرون مقطع القماش وحدة للتعامل . . ولكن الجنيه التركي الذهب كان عملة مقبولة .

والقاعدة عند خروج الطوارق بقوافلهم للمقايضة في السودان أنهم يتركون النساء والنسوخ والأطفال في مضاربهم ولا يخرج للارتحال إلا الرجال القادرون .

وتقطع الطريق على القوافل السرقة والسطو هو عادة بعض قبائل الهجرة وليس كلها ، والفرسان يحكون عن هذه المغامرات في مجال التفاخر والزهور أمام النساء . . وهم يقومون بها بدافع سلب الحلى والثياب الجميلة لإهدائها للمعشوقات والحبيبات .

والصيف هو الموسم المختار لنقل تلك المغامرات لأن الجفاف والحر وشح المرعى يدفع القبائل للتفرق بحثاً عن العشب .

ونوضع الخطة في الماء ثم يخرج الرجال في ارتحال سريع بغية انقضاضة مفاجئة قبل الفجر على خيام القافلة .

وبعد معركة سريعة يفر الحراس عادة ، فيثود اللصوص الإبل ثم يدخلون الخيام ويحسمون ما يجدون من حلى وثياب ويغزون .

ويحدث عادة أن تنقض القبيلة المعتدى عليها في هجوم مضاد يرصدون له كائن خاصة عند الآبار التي يعرفون أن اللصوص سيردونها في طريق العودة . ويحدث الالتحام ويقع قتل وجرحى كثيرون .

وأحياناً يحدث اتفاق سلمي وتدفع القبيلة المعتدى عليها ضريبة محددة من الإبل والثياب في مقابل تسوية معقولة .

وتقطع الطريق على القبائل السودانية يكون عادة بهدف خطف البنات والأولاد ليبيعهم في أسواق النفاسية أو استخدامهم كعبيد .

أما الحروب المنظمة بين القبائل فأكثر ندرة من حوادث قطع الطريق وهي تحدث عادة لأسباب سياسية . . تنازع على السلطة أو خلاف حول المراعى .

وهم يختارون الشتاء موسماً لحروبهم حيث تكون كل قبيلة قد جهزت نفسها بخزين من القوين والمواد الغذائية .

ومن تقاليد الحرب ألا يعتدى على النساء الأسرى .

والاعتداء على امرأة أسيرة وصمة عار لا تمحى في جبين المعتدى وقبيلته . . وكثيراً ما حدثت سلسلة من الحروب الانتقامية بسبب مثل هذا الحادث .

والأسلحة المستعملة في الحروب هي السيوف والخرايا والخنجر والبلط . أما العبيد فيسلحون بالمضى ولا يحمل الدروع إلا النبلاء والرؤساء والقواد .

وقد دخلت البنادق والمسدسات والرتاسات الحروب القبلية بعد دخول
الفرنسيين .

وأول رحالة غربي اكتشف الطوارق هو الانجليزي جوردون لانج ١٨٠٠
الذي بدأ رحلته من طرابلس إلى تيوكتو عابرا اعداس وفي الطريق تعرف
على الشيخ عثمان « شيخ منطقة الزاوية » الذي دله على مسالك الصحراء .
ولكنه قتل قبل أن يتم رحلته . قتله الأتلاء العرب الذين كانوا يرافقونه .

وفي سنة ١٨٤٩ استطاع الألماني هنري بارت أن يتم الرحلة التي لم يستطع
زميله الانجليزي اتمامها ، فوصل إلى تيوكتو ثم عاد إلى طرابلس مارا بكل
قبائل الطوارق في المنطقة . . . وبذلك دخل التاريخ مع الرحالة المعظم أمثال
لفنجستون وستابل وبرازا .

وأول مرجع واف عن الطوارق هو ما كتبه دوفيرييه الفرنسي في رحلة
استغرقت ٢٨ شهرا ، رافقه فيها الشيخ عثمان والرئيس التارجي أغنوخ .

وقد حدث بعد ذلك أن دعا دوفيرييه الشيخ عثمان إلى باريس وقدمه إلى
نابليون الثالث .

وأعقب هذا اتفاق تجاري بين الفرنسيين في الجزائر وبين الطوارق . .

وبعد ذلك بدأت المقاومة ، فرفع الطوارق المسلمون شعار « لا كفار
ولا مشركين في بلادنا » . . . وبدأ التقتيل بطارد كل بعثة غربية تحاول اختراق
الصحراء .

وتوقفت البعثات عشرين عاما .

وفي عام ١٨٩٩ عاد الرحالة فورريد ومعه ثلاثمائة رجل مسلح ليقتحم قلعة
الصحراء . . وهذه المرة استطاعت البنادق الحديثة والمسدسات المتعددة

الطلقات أن تقتحم القلعة ، ورفع فورريد العلم الفرنسي على واحدة عين صالح
وأعلن احتلالها .

وحاول الطوارق بقيادة « تبت » الهجوم على الفرقة الفرنسية ولكنهم عادوا
وقد تركوا وراءهم سبعين قتيلًا .

وبعد ذلك بدأت القبائل التارجية تعلن خضوعها واحدة بعد أخرى .

اللغة
البربرية
و
البربر

وأمام الظلم والاستعمار يجب الكل . . كذا يجب غوما العربي يجب أخيا
التاريخي ويتفضل سليمان الباروني البربري .

وقد عرفت القاهرة سليمان الباروني حينما كان يصدر جريدة الأسد
الاسلامي .

وقد أطلق سليمان شعر لحيته ورأسه وأقسم ألا يحلقه إلا حينما يخرج آخر
جندى إيطالي من أرض الوطن . . وقاد الكفاح الليبي ضد الاستعمار الإيطالي
وسافر إلى تركيا ثم الهند ثم توفي في بجاي وما زال له فيها قبر يزار .

وفي اللغة البربرية يستعمل حرف (ت) للتأنيث كما في العربية :

دبك : زيت

دجاجة : تزييط

حصان : أحمار

فرسة : بجهارت

وفي تصريف الأفعال يضاف حرف (و) ليبدل على الماضي ويضاف حرف
(أ) ليبدل على الأمر وحرف (س) للمستقبل كما في العربية .

يقتل : يتاغ

قتل : يتغور

سيقتل : سينغ

أقتل : أتغ

وهناك توازن مثل قتل يأكل وفعل يتام :

بطول الشمال الأفريقي . . في ليبيا في جبل نفوسة وزوارة وفي جنوب تونس
وفي وادي مزاب بالجزائر نجد اللغة البربرية والبربر .

وقد رأينا أن اللغة البربرية تدخل في تكوين اللغة النارجية وتدخل في
تكوين اللغة الغدامية وتدخل في طبقات سكان الدواخل الليبية .

وقرأنا في التاريخ أن البربر هم أصل الطوارق . وفي إحدى النظريات أنهم
أصل الفراعنة أيضا .

وقد استطاعت الصحراء الليبية أن تذيب العرب والطوارق والبربر في
سبيكة واحدة متمازجة ذات وحدة وطنية .

| الكلمة العربية | الكلمة البربرية |
|----------------|-----------------|
| الأبيض | مل لل |
| الأسود | زطف |
| الأحمر | ازفاغ |
| الأصفر | أوراغ |
| أنا | نيتش |
| هو | نيت |
| أنت | شك |
| هم | نيتي |
| يأكل | تيت |
| ينام | يططس |
| ينرب | يساو |
| يقتل | يتاغ |
| العصفور | النيسيو |
| المجاجة | تيازبط |
| الصفير | ايرق |
| الأنف | تليفاء |
| المقرب | تقارونت |
| المتكبر | أريثلت |
| الدودة | نكيتنا |
| النور | فوناس |
| البقرة | تقوتاميا |
| حمامة | تاججات |
| الصقر | ايرق |
| الكبير | أزعلوك |
| الصغير | أمران |

يأكل : يت

أكل : يتشو

كل : انش

سوف يأكل : سايش

وفي فعل ينام يستخدم التخفيف فيحذف حرف (ط) للدلالة على الماضي :

ينام : يططس

نام : يطس

سينام : سيططس

نم : اطس

وللمجمع يضاف حرف (ن) :

جمل : الغم

جمال : ايلغمن

حصان : اجمار

أحصنة : اجمارن

ديك : زبيط

ديوك : ايزيطن

ذئب : أوسن

ذئاب : أوشانن

ومن الأغاني الشعبية البربرية التي يغنونها في الأعراس مثل أغنية « مبروك عليكى يا عروسة » عندنا . . هذه الأغنية وكلهاها بالعربية :

رأيتها نائمة وشعرها مثانر حوها

والأسطورة تلمع في يدها

كانت منكئة

ونظراتي محج الهيا

كما تخرج نظرات المؤمن الى مكة

بل أكثر . . استغفر الله

رأيتها تسير

وعودها يشاب كالسيفينة

معبأة بكل ما يخطر ببالك

من عنبر وعطور وطلع جملة

وكلهاها بالبربرية :

زر يقطط ططس

لفط ينس يجعل وس

أديلع دوفنس ييجص

زر يقطط تنكا

دبس انتحت خزان مكا

لا يتل ما يبلخ

زر يقطط تيجور

المجدنس أمالبابور

يا مبالعت بشنور

أبللا عتله يلا ديس

والأعراس الشعبية لها تقاليد طريفة عند البربر .

أول يوم في الفرح ويسمونه فرس الحصيرة « إيساين جرنيلت » يطلقون الزغاريد والبخور وتغنى فرقة من العبيد « وكل المقنيات والراقصات عبيد سود وليسوا من البربر وهم نسل الرفيق القديم الذي اعتنق وظل يخدم سادته ويتوارث هذه الخدمة آبا عن جد » ، والبربرية الأصلية وهي عادة بيضاء وأحياناً شقراء لا تغنى ولا ترقص وإن كانت بعضهن زجالات وشاعرات . وفي اليوم الثانى من الفرح تقدم الصرة وبها الكسوة والخنة والسواك والبخور تحملها جارية في موكب زغاريد من بيت العريس إلى بيت العروس .

وفي الليل تقام حفلة ساهرة في بيت العريس . . . رقص وغناء وزغاريد . . ثم يتقدم أحد المغنين العبيد ويعدد محاسن المآزيم على الطيلة في مقابل النقطة « ايريج » وفي ثالث يوم وهو يوم مشهود يشرف السلطان « العريس » في المساء مع حاشيته ويجلس وعند قدميه يجلس عبيد . . وفي نفس الوقت تشرف السلطانة « العروس » لتجلس مع أترابها من البنات .

وتطول جلسة السلطان وهو يتلفت حوله في الألاطة (وهذه الألاطة جزء من التقاليد) . ثم يمد يده إلى العبد الجالس عند قدميه فيعطيه زجاجة عطر ويمسح منحة مالية وبذلك تفتتح الحفلة ويبدأ الرقص والغناء .

وفي الليل تسير السلطانة في زفة وتعمل لفة على قدميها في البلدة على ضوء المساعل وأنغام وزغاريد فرقة العبيد . . والأغنية التي يرددونها في تلك المناسبة :

ياللا أيا نروح

تدرتير تام طوح

ومعناها . . هيا يا سيدتي . . اسرعي الخطو فإلبيت بعيد .

وفي ليلة الدخلة يسير موكب يتقدمه أقرباء العريس إلى بيت العروس ويأخذون السلطانة إلى بيت عريسها . . وأثناء الطريق يطوق العبيد الموكب ومحجبونه بلاءة كبيرة تخفيه عن أعين الفضوليين .

والبربرية لا تزوج إلا بربريا .

والحب المذرى عندهم موجود ولكنهم محافظون جدا إلى درجة التزمّت . فالبيت تختفي وراء حجاب ولا تختلط بالرجال ولا يستطيع أن يختل حبيبان في خلوة . . والتعارف لا يزيد على نظرات مختلصة .

والأم هي التي تستطلع وتختار لايتها ثم يتقدم الأب ليخطب ويكتب الكتاب بهرمزى ٢٥ قرشاً كما هو مشيع في الشرع ثم يشترك الزوجان في الأثاث والجهاز .

وبالنسبة للموت تكتفى المرأة بوضع وشاح أسود حول رأسها لمدة أربعة أشهر وأحيانا وشاح أحمر « افكاي » . وتجتمع النساء في مجموعات ليكن « دموج الرحمة » ويشترك الجيران في جلب الطعام لأهل الميت ليأكل الممزون . . وفي اليوم الثاني تذبح ذبيحة توزع على الأهالي وتلى الختمة لمدة ثلاث ليال « ايبهران » .

والجتماع البربرى مجتمع استقرار يعتمد على الزراعة (الحبوب والزيتون والتين والرمان) . وهناك صناعات غزل وصناعات جلود وأحذية يحترفها بعض البربر . . ولكن صناعة الحدادة تتوارثها أسرطان كلتاها غير بربريتين .

وطبقة الصفوة الرائدة هم الموظفون الإداريون وفقهاء الدين ويسمونه « المزاية » . وهم الذين يقومون بالإفتاء وتعليم القرآن والتريفة وكتابة عقود الزواج والطلاق .

وهناك قلة من كبار الملاك .

ومنسوى المعيشة مرتفع نسبيا بين البربر والإقبال على التعليم كبير لأن كل واحد يحلم بأن يصبح « عزابة » .

واليونانجاز والنلاجة والتليفزيون والترازيستور والكاديلاك والبويك دخلت جيل نفوسة .

أما العبيد والسود فيؤلفون طبقة داخل بعضهم ، تحترف الزراعة والرقص والغناء والخدمة في البيوت .

ويعنى السود في أعراسهم أغاني تكشف عن ماضيهم الطويل الأليم :

باباي من كاوار

وأسي خادم

واللى جرى لى ما جرى لبن آدم

باباي من كاوار

وأسي حره

واللى جرى لى ما جرى للضره

ولكن بعض السود المظلومين استطاع أن يتعلم في الجامعة .

وبعضهم دخل الجيش والبوليس .

ولا يوجد مسيحيون بين البربر .

وكلهم محافظون إلى درجة التزم .

وهم يشعرون المذهب الأبيض .

والمذهب الأبيض يختلف في بعض تكليات قليلة عن المالكي والشافعي والحنفي . مثلاً عندهم لا بد من البسلة مع كل سورة .

والصلاة تبدأ بدون رفع اليدين إلى جانبي الرأس .

والنشيد بدون حركة الأصبع .

والخلافة تجوز من خارج البيت الهاشمي لأن شرطها هو الكفاية الخلقية

والدينية وليس الدم الهاشمي .

وفي نظرهم أن علي بن أبي طالب أخطأ حينما قبل التحكيم في واقعة الجمل . وقد ثبت أن الواقعة حدثت بين جيش معاوية وجيش علي . . . واكتشف معاوية بذلك أنه أن قرصته في التصرف قليلة فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب التحكيم .

وفي نظر الأباضية أن علياً أخطأ بقبول التحكيم لأنه صاحب حق في الخلافة . وبصرف النظر عن هذه الفروق النكالية فإن البربر تسديدوا الإيمان وتديدوا التحك بأخلاقيات الإسلام . وهم ودعاء أمناء قلما يصل بينهم شجار أو خلاف إلى درجة اليوليس . لأنهم يحملون أكثر مشاكلهم على المستوى العائلي وعندهم كلمة « رجل جيالى » مرادفة « لرجل أمين » .

ابناء
نوح

مصاريم أنجب الفراعنة ..

وفلسطين أنجب الفلسطينيين القدماء .

وكنعان أنجب البربر .

وكلمة بربر جاءت من الجسد الأكبر بربر بن غلا بن مازيغ بن كنعان بن نوح .

وجاء البربر في هجرة من الشام إلى شمال أفريقيا ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح أي قبل التاريخ .

وكان الرحل منهم يسكنون الخيام من النمر والوبر وبعض الذين استقروا على الزراعة في الوديان كانوا ينحنون بيوتهم في الجبال وينقرون في الجبل غرفات كاملة يرافقها وما زالت بعض هذه البيوت المنحوتة باقية في جبل نفوسة وفي جنوب تونس وجبال الأوراس .

وكان دين البربر القديم هو آمون ومظاهره الشمس والقمر والكبش ذو القرنين وكانوا يقدسون الحماة والطاووس والقط والضفدعة والسلحفاة .. وكانوا يعتقدون أن قتل هذه الحيوانات يصيبهم بالسل والجنون والمآهات .

وما زالت عقيدة تحريم صيد الحماة باقية إلى الآن في أنحاء كثيرة من المغرب . واعتقد البربر في الجن والأرواح التي تسكن البنايا الحارة .

وكانت الأم عندهم مقدسة وكانت تحكم على القبيلة وتسوس الرجال .

وكان الابن قدما يتب لأمه لأبيه .

واستخدموا لغة منطوقة ومكتوبة هي اللغة البربرية .. واللغة المكتوبة سموها « تيفيناغ » وهو نفس الاسم المستخدم في اللغة التارجية .

في كتاب العبر لابن خلدون يروي لنا ابن خلدون عن تسجيرة عائلة نوح وأولاده قائلا : إن نوح أنجب ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافت .

أما فرع يافت فهو الذي جاء منه سكان شمال أفريقيا الذين استوطنتوا هذا المكان من العالم قبل البربر وهم أجناس ما قبل التاريخ الذين يطلق عليهم الكروماجنون . ويقول عنهم ابن خلدون أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والكبش والقرد والثور وكانوا يدفنون الميت في وضع جنيني لاعتقادهم بأنه سوف يبعث كميلاد الجنين من بطن الأرض .

أما فرع نوح الثاني « حام » فهو قد أعطانا ثلاثة أبناء هم مصاريم وفلسطين وكنعان ..

وترجمة كلمة تيفيناغ.. الحروف المنزلة من عند الله..

وأكثر الكلمات البربرية تجدها في اللغة التارجية بنصها.

وحينما دخلت اللغة العربية مع الإسلام شرع البربر في بربرة الكلمات العربية بإضافة التاء إليها:

| | |
|---------|---------|
| الدار | تدارت |
| الحانوت | تاحنوت |
| الغاية | الغايته |
| الجنة | الجننت |

وهناك أمثلة شعبية بربرية تنسب في المعنى أمثلتنا العربية:

انفسي تشورداست - يلاقى العظم في الكرسة

ويدهكلن يطاود - من صبر ظفر

اغرم وليتر ابني ديواس - الدنيا لم تكن في يوم

طيطس أنا وساعت - أبو عين فارغة.. أبو عين جريئة

تالويت سوزاف الابلاسيفنطارن - النقاء بالدرهم والمرضى بالقطار

وقد أقام البربر دولة بربرية كبرى كانت تشمل ليبيا والمغرب وموريتانيا.

وحفظ لنا التاريخ أسماء ملوك عظام أمثال صفاقس ومصنيا ويوغورطة ويوبا.

وقد غزا الرومان الدولة البربرية وأسروا ملوكها وساقوهم مكبلين بالحديد

في سوارع روما وجندوا ألوف البربر في جيوشهم بالسفرة.

ويروى لنا التاريخ المعارك بين يوليوس قيصر ويوبا.

وغزقت الدولة البربرية.. ولكن ظلت المقاومة تندلع من برابرة الجبل والوراث تتوالى ضد حكم روما.

ويروى لنا التاريخ أن أحد الأباطرة الرومان ستموس سافاروس كان من أصل بربري وأنه أنصف البربر ومن القوانين بمساواتهم بالرومان في عهده.

وما زال نثال ستموس سافاروس قائماً في أحد ميادين طرابلس إلى الآن.

وقد تعانقت الديانات البربرية القديمة مع الديانات الرومانية، فكلها كانت ديانات وثنية

وحينما جاءت المسيحية كان البربر أسرع من الرومان اعتناقاً لها، فقد وجدوا فيها خلاصاً وأملاً.

وفي عهد الامبراطور صوكليسيان أحرق وقتل آلافاً من شهداء البربر المسيحيين.

وحينما دخلت روما المسيحية.. أنشأ اثنان من القسس البرابرة مذهباً مباحياً خاصاً اسمه الدوتسية.. واعتنق الكثير من البربر اليهودية نكاًية في الرومان..

ويروى لنا التاريخ سقوط الحكم الروماني على يد قبائل الوندال (قبائل جرمانية غازية مثل التتار).

وبعد موجة غزو الوندال تأتي موجة الغزو البيزنطي.

وفي سنة ٦٤٨ وفي حكم عثمان بن عفان يدخل القائد المسلم عبد الله بن سعد على رأس جيش من عشرين ألفاً ليحارب مائة وعشرون ألفاً من البربر بقيادة جرجير البربري ويتنصر عليه ويقتله ويدخل الإسلام لأول مرة إلى البربر.

| الكلمة العربية | الكلمة البربرية |
|----------------|-----------------|
| الحب | غاس |
| الكرامة | اكراه |
| الفرح | اسلان |
| الوردة | تورديت |
| الشجرة | تسجريت |
| الطفل | نعونس |
| المرأة | نطوط |
| الرجل | أرجاز |
| الفتاة | نعديت |
| السحاب | اييلم |
| الماء | أسن |
| النار | نفاوت |
| اللبن | أغى |
| العتب | زورين |
| التين | ايملكن |
| الزيتون | أزمور |
| الخيز | غرون |
| القمح | بردن |
| النمير | طمزبن |
| الذرة | الملى |
| البرسيم | الصفصاء |
| حصان | اجار |
| جل | القم |
| ذئب | أوشن |
| الأسد | وار |

ولا يبقى أثر لهذا الطوفان من الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي... لا نجد أثرا من
وثنية أو مسيحية أو لغة رومانية أو جرمانية أو بيزنطية برغم سنوات من حكم السيوف...
ويفتح البرابرة أذرعهم للفرقة المجددة لغة ودينا ليصبح الإسلام هو الدين الوحيد والعربية
هي لغة الشمال الأفريق كله.

ونسبح الآن في جبل نفوسة، في مولد النبي، البربر ينشدون المدائح النبوية
المؤثرة بلفتهم البربرية:

باتا بمرفد تلقى... اس مكة استوفضت ايشركن
عنجال الدين الربيس... بيوض الدباغ سيضفا عن
ومعناها:

ما أند ما لى النبي من عذاب
من مكة وطه أخرجه المشركون
ومن أجل دين ربه
رجموه بالأحجار حتى نزل دما

کلمۃ
اللہ
میں
الصالحاء

وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً في وسط أفريقيا.

ويقدر المؤرخ دوغرييه أتباع السنوسية في عام ١٨٧٣ بحوالي ثلاثة ملايين. ويقول هاملتون إن السنوسى أسس أكبر أخوة دينية في أفريقيا امتدت فروعها من مراكش إلى الحجاز.

فما هي الدعوة السنوسية؟

كان ابن السنوسى يرفع شعاراً واحداً هو إعلاء كلمة الحق.

تنبى الغافل وتعلم الجاهل وترشد الضال.

وكانت وسائله هي التقرب إلى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح والكفاح واتباع الزهد وقراءة التسابيح والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة النورانية والوجد.

ولكنه لم يكن صوفياً منقطعاً، وإنما كان مبنياً له رؤية اجتماعية... وفي ذهنه نظام مثالي عانى يخطط من أجله...

كان يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى على صورة جديدة.

ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام الزوايا.

وفي أواخر عصره كانت هناك ١٢١ زاوية منها سبع عشرة في مصر وواحدة في استانبول واثنتان في الحجاز وست وستون في طرابلس وبرقة وعشر في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في السودان الأقربى.

الصحراء كانت دائماً محباً عظيماً للحرية والحركات التحريرية وأوكر للنوار والمفكرين، احتضنوا فيها أفكارهم حضانة طويلة قبل أن تفرخ زوايا غرت وجه الأمة العربية.

وكانت جميع هذه الحركات التحررية دينية.

السنوسية في الشمال الأفريق والمهدية في السودان.

في برقة وواحة الجغبوب والكفرة وغدامس كان ابن السنوسى ينتقل لينشر دعوته بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سلطن والمجسيرة... وأكثر من هذا كان السنوسية ينشرون المبيد والأرقاء صفاراً من السودان ويربونهم في جغبوب وغدامس حتى إذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم الدينية اعتنقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان لنشر الدعوة بين أبناء جنسهم.

كل زاوية مبنية على مكان مرتفع حصين لتكون كالقلعة .

وبكل زاوية مسجد ومدرسة ومكتبة وحدائق وأراض موقوفة .

والزاوية ملكية عامة للنظام نفسه هي والأراضي الموقوفة عليها . . وفائض غلات الأراضي إذا كان هناك فائض يرسل للمركز ليوسلها بدوره إلى الزوايا التي يديرها .

وكل فرد من أفراد القبائل يتبرع بحبات يوم وحصاد يوم ودراس يوم في أرض الزاوية . وذلك لتسهيل الصمران دون نفقة .

وكانت الزاوية بمثابة استراحة للقوافل ومركز تجارى ومركز اجتماعى ومحكمة ومصرف وبيت الضيافة وملجأ للفقراء ومدرسة للقرآن وحرم أمن ومدافن وساحة للتدريب اليومي على الرماية وإطلاق النار .

وتجرى المسابقات وتعطى الجوائز لأهم الرماة .

وكان حفر الآبار وبناء الصهاريج واستصلاح الأرض البور واجب كل زاوية في المكان الذى تقام فيه .

وكان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للنسفل بالأيدى . فيتركون الدروس في ذلك اليوم ويستقلون بالتجارة والمخداة وغزل الصوف وقلع الأرض ، لا يجد منهم إلا من يكد ويكدج وعلى رأسهم الشيخ السنوسى نفسه .

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية ، ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيخ القبائل وأعيان المنطقة .

ومن شيوخ الزوايا مجبهم يتألف مجلس أعلى يرأسه السنوسى .

وهو نوع من التنظيم الهرمى في أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين ، يليهم إلى أعلى شيوخ القبائل ثم شيوخ الزوايا ثم الشيخ السنوسى .

ويجتمع المجلس الأعلى للنظر في سير الحركة مرة كل سنة .

واخذ النظام من برقة مركزاً للدعوة .

ومن برقة اتسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبنى الحارث وبنى حارب كما انتشرت بواسطة الحجاج في اليمن . . وبيت الزوايا في المدينة والطائف والحمرام وينبع وجدة .

كانت السنوسية دولة داخل دولة .

وكان السنوسى يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى وتوحيده بشكائره هذه الخلايا حتى تبتلع الأمة العربية في داخل هذا الشكل التنظيمى الجديد من الانسجامية الإسلامية .

ولكن الاستعمار الإيطالى الزاحف من الشمال والاستعمار الفرنسى الزاحف من الجنوب لم يهمل هذه الحركة حتى نوقى غرورها . . وما لبث أن أطبق عليها بكلاية الحديد والنار .

وفي لحظة وجدت السنوسية نفسها في موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا في أعماق الصحراء .

يقول دوفريه إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التى قامت ضد فرنسا كحورة محمد بن عبد الله في تلمسان وعصيان محمد بن تكول في الظهراء .

وفي سنة ١٨٩٥ كان علم المقاومة للاستعمار الفرنسى في الجنوب ، في يد

السنوسية وحدهم .

وكان محمد البراقى يجمع الجيوش من الطوارق والبدو والبربر لمقاومة الزحف الفرنسى .

وكانت الأموال والأسلحة تندفق من التلاميذ والمريدين .

وفى خطاب مرسل من أحد تلاميذ السنوسى إلى مدير غدامس التركى يكتب التلميذ :

« وقد وقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلا وغنمنا من الخيل كثيرا والبنادق بلا عدد والحزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك وبركة شيخنا معنا » .

وكانت من تقاليد الطريقة السنوسية مناولة السبعة والسيوف للمريد حين يتم دراسته ، ويكون ذلك بأن يلبسه الشيخ الجرة أو الخرقة ، وبعد أيام يتناوله السبعة ويلبسه السيوف ويأمره بالصلاة بهذا الزى .

وفى أوردده المؤرخ أحمد زاهد :

« إنه من الواجب على كل فرد من السنوسية ما دام قادراً وغير عاجز أن يكون مستعداً للطوارئ متهيئاً للحرب منتظراً للأمر متقدماً له بكلال طاعته » .

ومما يروى أن رشيد باشا التركى أرسل جواسيسه إلى إحدى الزوايا وسأل الجاسوس أحد الاخوان ، وهو محمد البكرى . عما إذا كان بالزاوية أسلحة ، فأجاب البكرى نعم لدينا مخازن من الأسلحة ، ثم قاده إلى أحد مخازن الكتب وفتحها له .

وقد استمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين عشر سنوات .

قلت له : كيف تجد الكفابة فى هذه الأعشاب ؟ . .

قال لى : كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن الغيبة ، وافتح قلبك للحب يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العبدان غذاء كاملاً .

سألته أن يعطينى . .

فنظر إلى فى حياء وغمغم :

قال الله للمسيح : « يا عيسى عظم نفسك فإن اتعظت فعسظ الناس وإلا فاستع منى » . وأنا لم أتعظ بعد لأعظك .

فقلت له : إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى على الطريق

فقال وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد :

أصرف كل اهتمامك إلى العلم ، فإن الله لا يعبد إلا بالعلم .

لا تستغل بطلب الدنيا ، فن يشتغل بطلب الدنيا يبتلى فيها بالذل .

إذا خفت الله خاف منك كل شئ . .

احذر صحبة النساء اتقاء على إيمان قلبك .

الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس وفراغ العقل وهذا شأن من تراهم على المقاهى . . فلا تنس به إلا الحضرة الإلهية والخلوة مع الرحمن .

من لازم الناس أصبح محصوراً فى محيطاتهم وفى هيكل ذاته .

من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد دعا إلى معصية .

نقاء السريرة وصفاء القلوب وسلامة النيات ومحبة الخلق والمخالق هى رأس العبادة والسعى وراء الشهرة فسادها .

وفي سنة ١٩٠٢ سقطت زاوية بير العلاف في أيدي الجيش الفرنسي الذي
هدمها وبني مكانها قلعة حصينة.

وفي سنة ١٩١١ تحولت السنوسية إلى النبال لمقاومة الاستعمار الإيطالي.
واستطاعت أن تقاوم الإيطاليين عشرين سنة.

ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربي استطاع أن يهزم
بدو الصحراء.

وفي كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية تحسم المعركة.

حريته

الرجل

المصالح

أكثر من صحة الصالحين فإن فيهم الشفعاء .

قلت له :

- ومن هم الصالحون ؟

قال :

- لباسهم ما ستر وطعامهم ما حضر . . أبرار أخفياء . أتقياء إذا غابوا لم
ينفقوا وإذا حضروا لم يعترفوا . . تحابوا في روح الله على غير أموال
ولا أنساب . . يتعارفون في الله ويحبون في الله ويكرهون في الله . يقول الله عنهم
يوم القيامة : أئین المتحابون بجلالي . . اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

قلت له : هل لهم وجود في هذه الأيام ؟

قال :

- خلت الديار ، وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر ، وبقي أهل النوم .
واستبدل الزمان بأكل الشهوات أهل الصوم . . لم يبق إلا أقزام مهازيل حنالة
كحنالة الشجر أمثالنا لا يبالي الله بهم .

قلت له : ما رأيك في أهل هذا الزمان ؟

قال في حسرة :

- اعترفوا بالله وتركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولم يعملوا به وقالوا نحسب
الرسول ولم يتبعوا سنته . وقالوا نحب الجنة وتركوا طريقها . وقالوا نكره النار
وتسابقوا إليها . وقالوا إبليس لنا عدو وأطاعوه ، ودفنوا أموالهم ولم يعتبروا
بهم . واستغلوا بعيوب إخوانهم ونسوا عيوبهم . وجمعوا المال ونسوا الحساب .
وبنوا القصور ونسوا القبور .

هو رجل مغرب منقطع للعبادة في جبل .

لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه . .

هو عبد الله في أرض الله .

بليس يردا من الصوف ويجلس على الأرض بغير فراش ويتوسد الحجر . .
وما رأيت معه إلا بعض كتب مخطوطة . . وما رأيته ضاحكاً . . وما رأيته رافعاً
بصره في طريق .

يكسب حياته من غزل الصوف .

ولا يأكل إلا بضع ثمرات فإذا ارتحل فأعشاب الطريق زاده . . وهو مورد
الوجه يفيض صحة وإنشاقاً .

لقد كنا في زماننا نعلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بها .

وأنتم جاءكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فإذا فعلتم ؟

ولم أجد كلمة أجيبه بها .

أما هو فراح يكي ويغمغم بين دموعه .

والله لولا عباد ركع وصيبة رضع وبهائم رجع لعب عليكم العذاب صبا .

وحينا تركته كان قد بدأ ينتد :

وشمس على المعنى مطالع أفقها فغربها قينا وشرقها منا

وحينا كانت نغبات أنشاده تذوب في الهواء كانت ذاكرتي تعود بي إلى لقائي بالمتصوف الهندي براهما وأجيسوارا الذي رويت حديثه في كتابي الخروج من التايوت . . ولا أدري لماذا أحسست ألى أمام نفسي الرجل . .

كان كلاهما يقول كلاما واحدا ، ويتكلم نفس اللفظ وكأننا يجلسان على مائدة واحدة وبقراء من نفس الكتاب .

وتذكرت حديثي مع المتصوف المغربي عبد العزيز بن عبد الله وكيف كان يقول لي إن التصوف الهندي هو الذي أخذ منا ولم نأخذ منه وإن تجار بابل وفارس وعلماءها كانوا ينقلون دياناتنا الشرقية إلى الهند من أيام إبراهيم الخليل بدليل دخول الكلمات العربية في الكلمات السنسكريتية :

سوترا . . الصورة

جو . . هو

متا . . من أنت

بوداتا . . ذات بودا

احسين . . احسان

اسرافا . . اسراف

ماهايانا . . معاينة

كارما . . كرامة

نيرافانا . . نور الفنا .

لقد كنا نعطي دائما .

ولقد أخذ منا الكل .

واحتوت دياناتنا على الحق كله .

والتصوف الإسلامي احتوى بين دفتيه على كل الطرائق بما فيها البوذية واليوجا .

كنت أسير مستغرقا في التفكير

وكان الشاهد الفقير المغربي ما زال يرن في أذني :

وشمس على المعنى مطالع أفقها فغربها قينا وشرقها منا

نعم . . إن الشمس تغرب قينا الآن . .

فتي يكون مشرقها منا . . ؟